بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٥٩ ـ جمادي الأول ١٤٣٣هجرية قمرية

فروردين ١٣٩١هجرية شمسية / ابريل (نيسان) ٢٠١٢

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران –طهران –ص. ب: ٦٩٩٥– ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني: info@taghrib.ir

الطباعة: حسين المندلاوي / على حروف (**قلم برتر**) خاص بالنشر المحترف

النسخة رقم (٢) من www.MaryamSoft.com

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.IranArab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٥٩

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ٤

لنَقُلها بصراحة ١١

التقريب المذهبي في مشروع الإمام الصدر ١٥

التجديد والزّمن رؤية الشهيد الصدر لمؤثرات التجديد ٣١

علاقة الأخلاق بالاقتصاد في رؤية الشهيد الصدر ٤٢

موقف الشهيد الصدر من ظاهرة تخلف العالم الإسلامي ٥٩

نداءات الشهيد الصدر للشعب العراقي ٨٤

مقصد الدين في منظومة فكر الشهيد الصدر ٩٣

وقفات عند فكر
الإمام الخامنئي

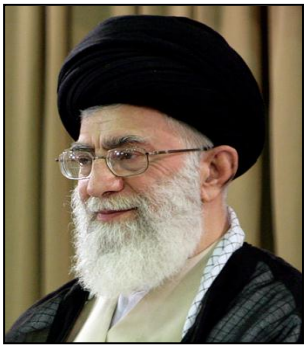

في لقائه الشعراء العرب المشاركين في مؤتمر الصحوة الإسلامية قبيل انعقاد المؤتمر العالمي للصحوة الإسلامية في طهران، انعقد ملتقى شعراء الصحوة الإسلامية في العاصمة الإيرانية تحت عنوان: «**دورة أبي القاسم الشابي**» وفي الثالث عشر من ربيع الأول من العالم الجاري، التقى الشعراء بالسيد القائد، وألقى بعضهم أشعاره ثم تحدث السيد القائد إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

أعتذر لاضطراري* أن أتحدث باللغة الفارسية. أرحب بكم (في الجمهورية الإسلامية الإيرانية) وأرحب بكم أيضًا في هذه الجلسة أيها الأعزّة من الإخوة والأخوات. وأشكر الله سبحانه أن استثار قلوبكم وعواطفكم لتنهضوا بدور في هذه المسألة الكبرى التي تجري اليوم في دنيا الإسلام، وأعني الصحوة الإسلامية.

---

*- يشير سماحته إلى أن الفارسية هي اللغة الرسمية للبلاد.

دورالشعر

أشـيرأولًا إلـى موضـوع «**الشـعر**»، فهـو فـن راقٍ رفيـع وخالـد. رغـم أن الفنـون اليـوم قـد تنوّعـت وتشـعّبت ولكـل واحـد منهـا جاذبيتـه وميـدان نفـوذه، فـإن الشـعرلـم ينـزل عـن مكانتـه ومرتبتـه ، خاصـة بـين الشـعوب التـي امتزجـت ثقافتهـا وحياتهـا بالشعر، ومن أبرزها الشعوب العربية.

الشـعرفـي العربيـة والحمـد لله بلـغ الـذروة، وأدّى دورًا هامًـا فـي مواقـف مختلفـة. ثمـة قضـايا عديـدة كـان للشـعرفيهـا دور كبيـرحاسـم. هـذا مشـهورفـي تـاريخ العـرب والـبلاد العربيـة. قـوة الإثـارة فـي الشـعرهائلـة. وقـد مَـنَّ الله سـبحانه علـى بعـض الأفـراد بهـذه الموهبـة. هنـاك مـن يمتلـك ناصـية الشـعربشـكل حقيقـي. **الشـعربالنسـبة لهـؤلاء لـيس تكلفًـا ولا تصـنعًا، بـل هـو حـديث القلب، يجري على لسانهم وقلمهم.**

علينـا أن نكـرم الشـعرونهـتم بـه . دواويـن الشـعرفـي المكتبـة العربية مفعمة بالحكمة وبالحديث الفاخرالممتاز.

الصحوة الإسلامية

ثـم أشـيرإلـى هـذه الحادثـة الكبـرى التـي تشـهدها دنيـا الإسـلام اليـوم، وهـي التـي نصـرّعلـى تسـميتها **الصـحوة الإسـلامية**. إنهـا حقيقـةً **صـحوةً**، وحقيقيـةً **إسـلاميةٌ**. يضـعون لهـذه

الحادثة الكبرى أسماء أخرى وعناوين أخرى، أسماء ناقصة. **إن لم تكن هذه التسميات مغرضة فهي ناقصة.** اسم (الربيع العربي) لا يجسّد هذه الحركة العظمى. هذه الحركة هي (صحوة)، صحوة بالمعنى الحقيقي، ولم تكن حادثة عارضة. بل إنها نتيجة لتراكم حوادث سابقة، ولم تكن حادثة قد ولدت اليوم. فخلال سنوات طويلة قد تراكمت عند العرب عِبرَ كثيرة ودرك عميق وهمة متزايدة، وفجأة انفجرت من نقطة معينة مثل بركان، وبرزت على السطح.. وسوف لا تنتهي.

نعم، نحن نؤمن أن هذه القضية ليست لها نهاية. **سوف تستمر، وتتواصل، وتغيّر بإذن الله تاريخ الأمة الإسلامية. إنها بداية حادثة تاريخية كبرى.**

هذه الحادثة و إن كانت قد أبرزت اليوم أسماء شعوب **مصر وتونس وليبيا واليمن والبحرين** و... لكن هذه الحادثة تشمل الأمة الإسلامية جمعاء. لا فرق بين عرب وعجم وفرس وترك وسائر القوميات.. هذه حادثة الأمة الإسلامية كلها. وسوف تُحدث إن شاء الله تغييرًا وتحوّلًا في الأمة الإسلامية بأجمعها.

أريد أن أقول إن الشعر يجب أن ينهض بدوره في هذه الحادثة.. هذا ما نريد. دَعوا التاريخ يحدثنا عن أشخاص كانت لهم موهبة الشاعرية وقدرة إنشاد الشعر وكان لهم

الدورفي هذه الفترة الزمنية. تستطيعون أن تنهضوا بدوركم.

المطلوب من شعراء الصحوة الإسلامية

المطلـوب مـن شـعرائنا فـي **شـعرالصـحوة الإسـلامية** أمـران: الأول يـرتبط **بـالمحتوى** ، والثـاني **بالشـكل**. المحتـوى يجـب أن يزيـد الشـعوب بصـيرة علـى بصـيرتهم. هـذا الهـدف يمكـن أن يتحقـق بالخطـاب العـادي المتعـارَف. لكنـه يتحقـق بالشـعر بصـورة مضـاعفة. **قـد يتضـمّن مصـرعٌ مـن الشـعرأو بيـتٌ منـه حكمـةً لا تسـتطيع أن تتضـمنها سـاعةٌ مـن خطبـة**. البيـان الـذي يتضـمنه ذلـك البيـت إنمـا يفـوق سـاعة مـن خطبـة لأنـه ينفـذ إلـى أعمـاق القلـب. الشـعرلـه هـذه الميـزة. الشـعرإذن يجـب أن يتضـمن في محتواه جميع ما تحتاجه الشعوب المسلمة اليوم.

لابـدّ مـن بلـورة الأهـداف السـامية للشـعوب، إذ إن هنـاك مسـاعي لوضـع أهـداف مزيفـة للشـعوب. هـدف هـذه المسـاعي وضـع العقبـات أمـام حركـة الشـعوب نحـو تحقيـق أهـدافها الحقيقيـة. هـذه الأمـوريجـب أن يتضـمنها الخطـاب الشـعري بـل أي خطـاب فنـي، كـي تتعمـق الصـحوة وتتعمـق بصـيرة الجماهير.

وبشـأن **محتـوى الشـعر**أيضًـا، لابـدّ مـن إبـرازدورالـدين ودور الإيمـان بـالله سـبحانه، ودورالمعـارف الدينيـة فـي هـذه الحركـة

العظيمة الجماهيرية، وهذه حقيقة ملموسة. **أية نهضة تستند إلى العقيدة الدينية فهي في مأمن من الأخطار وسوف تتواصل**. وإن لم تكن مستندة إلى عقيدة قلبية يمكن إجهاضها بسرعة. هذه الحركات القومية في العالم العربي إنما فشلت في الاستمرار وفي المحافظة على نفسها لهذا السبب ذاته.. لأنها لم تكن مستندة إلى تفكير معنوي وعميق. ولكن حين يكون الإسلام هو مصدر الدفع.. **فإن الإسلام فيه المعرفة وفيه العاطفة، وفيه العمل**. لذلك فإن هذه الصحوة المستندة إلى الإسلام ستكون نهضة باقية. هذا ما يرتبط بالمحتوى والمعنى.

أما ما يرتبط باللفظ والشكل، فهو أمر لا يجوز التهاون فيه. لا يمكن أن نقلل من أهمية شكل الشعر في ارتقاء هذا الفنّ. **ما يستطيع أن يحافظ على فِكرةٍ لألف سنة في التاريخ هو الفنّ الراقي**. ترون اليوم حِكمًا في أشعار كبار الشعراء قد بقيت في الأذهان وترددت على الألسن لألف سنة. ذلك لأن الذين أنشدوا ذلك كانوا من أمثال **المتنبي** و**أبي تمام** أو **أبي العتاهية**. هؤلاء من كبار الشعراء ومن فحول الشعر العربي. الفنّ الراقي يخلّد الشعر. لو كان المستوى الفني ضعيفًا لما بقي الشعر على مرّ العصور. الشاعر الضعيف يجهد نفسه لكن أثره لا يبقى.. يزول.. لا تتداوله الألسن . أنا أصرّ على

شعرائنا الأعزاء أن ينشدوا قصائد خالدة، قصائد فاخرة رفيعة المستوى. أن يبذلوا جهدًا في إنشادهم. في الشعر العربي القديم ثمة قصائد أطلقوا عليها اسم «**الحوليات**» كانوا يعالجونها لحول واحد أي لعام واحد.. لا ضير في ذلك . حين يبذل شاعرٌ جهدًا لعام واحد فإن قصيدته تخلد لألف عام. هذا البقاء يستحق هذا الجهد.. إذ إنه يرتقي بمستوى الشعر.

في هذا الجمع نشاهد بحمد الله فنًا جيدًا.. وكفاءات جيدة في الإنشاد. خاصة في بعض ما ألقي في هذه الجلسة. حقًا كانت أشعارًا راقية. هذه الكفاءات يجب أن تُفعَّل. هذا الفن يجب أن تظهر حقيقته.

عندنا أيضًا شعراء كبار أنشدوا المتوسّط من الشعر، هذا يحدث حين لا يعيرون اهتمامًا بقصائدهم.. حين يهتمّ الشاعر بإنشاده فإن إنتاجه يرتقي فنيًا.. يحوز على مرتبة سامية.. ويبقى هذا الذي ضمنتموه في شعركم.

مسألة الوحدة الإسلامية

ثمة مسألة هامة ملحوظة في شعر الصحوة الإسلامية، وكان واضحًا في شعر هؤلاء الإخوة، هي مسألة **الوحدة الإسلامية**. المساعي المبذولة لإفشال هذه الحركة العظمى للصحوة الإسلامية تتركز على تشتيت المسلمين. هذا التمزيق

خطـر كبيـر. والذريعـة موجـودة دائمًـا للتفـرّق. ذريعـة دينيـة .. أو ذريعـة طائفيـة أو ذريعـة قوميـة، وقـد تضـاف الذريعـة السياسـية. الذريعـة موجـودة دائمًـا. ومقـدرتنا تتجلـى بالتغلـب علـى وسـائل التفرقـة هـذه وسـدّ الثغـرات التـي ينفـذ منهـا العـدوّ. لابـد أن نتغلّـب علـى عوامـل التفرقـة. ثمـة عوامـل قائمـة دائمًـا للتفرقـة والاسـتفزاز. والعـدوّ يضـرم النـار فيهـا، ولابـدّ أن نتغلّـب عليهـا. هـذا واجبنـا جميعًـا فـي أي مكـان كنّـا. **لا تَـدَع العـدوّ يدخلـه السـرور بتفرقنـا وعـداواتنا**. هـذه مسـألة هامـة، تسـتطيعون أن تعكسـوها في شعركم، وسيكون لها التأثير البالغ.

توظيـف الشـعر فـي خلـق جـوّ مـن الحـبّ والـودّ و إزالـة الحـواجز النفسـية أمـر مهـمّ. ويمكـن أن يـنهض الشـعر بهـذه المهمّـة. **لابـدّ مـن تجـاوز الحـواجز**. تجـاوز الحـواجز القوميـة أسـهل طبعًـا مـن معالجـة الحـواجز المذهبيـة. المسـائل المذهبيـة تحتـاج إلى دقّـة بالغـة فـي معالجتهـا. علـى أي حـال **اتحـاد العـالم العربـي والعـالم الإسـلامي أمـر حيـاتي وضـروري**، نأمـل أن يتحقـق بـإذن الله تعالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لِنَقُلْها بصراحة

محمد علي التسخيري *

نواجه هذه الأيام عَتَبَ بعض الجماعات الإسلاميّة بشأن موقف الجمهورية الإسلامية تجاه ما يجري في سوريا.

إنّه عتب طبيعي تحمّلناه دون أن نتصدّى للجواب، و إن بلغ هذا العتاب أحيانًا درجة الشديد من اللوم، وأحيانًا أكثر من ذلك.

تحملناه لأننا نرى الظروف متأزّمة، والأزمات قلّما تفسح المجال لحوار متعقّل هادئ، ولرؤية واضحة للحقائق.

ونودّ اليوم على صفحات «ثقافة التقريب» أن نقف ــ ولو قليلاً ــ عند موقفنا مما يجري في سوريا، راجين أن لا يكون وقوفنا هذا متعارضًا مع نهجنا في التقريب الذي يقضي بالابتعاد عن الإثارات المفرّقة.

بداية ثمة ملاحظات لابدّ من ذكرها:

الأولى ــ أن سوريا هي البلد الوحيد بين دول جوار فلسطين

---

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

الـذي رفـض التوقيـعَ علـى معاهـدة مـع العـدوّ الصـهيوني، وأبـى أيّ لـون مـن ألـوان التطبيـع رغـم مـا كلّفـه ذلـك مـن أثمـان باهضـة. كمـا أنّ مـا حققتـه المقاومـة الإسـلامية والوطنيـة فـي لبنـان وفلسطين يعود الفضل في قسم منه إلى الدعم السوري.

الثانيـة ـ أنّ الشـعب السـوري محـقٌّ فـي مطالبتـه بالإصـلاح، وكـلّ مشـروع إصـلاحي أُعلِـنَ فـي سـوريا كـان مَوضـع تأييـد الجمهوريـة الإسـلامية، والحزمـة الأخيـرة مـن الإصـلاحات المُعلنـة كانـت مُعَـدّة لـدى القيـادة السـورية منـذ سـنين، غيـرأن هنـاك كـان مـن يـرى أن الظـروف غيـرمناسـبة لإعلانهـا بسـبب تـربّص القـوى المشـبوهة التـي تتأهّـب لاسـتغلال فرصـة الإصـلاحات لتنفيذ أجندة أجنبية.

الثالثـة:إنّ هـذه القـوى المشـبوهة اسـتغلّت فعـلاً حركـة المطالبـة بالإصـلاح، فحوّلـت الحركـة الـى حـربٍ أهليّـة مسـلّحة، و إلـى فتنـة طائفيّـة، و إلـى حـوادث قتـل و إرعـاب لا نتعـرّض لهـا كي لا ننكأ الجراح.

الرابعـة:ألا يـرى الإخـوة اللائمـون أن بـين صـفوف المعارضـين مـن يرفـع شـعارات التكفيـرويمـارس القتـل الجمـاعي تحـت هـذا الشعار؟!

ألا يـرى الإخـوة اللائمـون أن ناطقًـا يـدّعي الحـديث باسـم المعارضـة يشـيد صـراحة بـ«ديمقراطيـة إسـرائيل»؟! ألـم يسـمع الإخـوة أن مـدعيًا لقيـادة المعارضـة يُعلـن بصـراحة أنـه إذا تـولّى

الحكم فيستخذ موقفًا معاديًا من إيران ومن حزب الله؟ أليس ذلك ـ كما قال السيد نصرالله ـ تقديم أوراق اعتماد لواشنطن؟

الخامسة: نحن ندعو الإخوة اللائمون أن ينظروا بعين (البصيرة) إلى الجبهة المؤيدة للإطاحة بالنظام السوري، ما طبيعتها؟

إنها الرجعية العربية المرتبطة صراحة بالمشروع الغربي الأمريكي الإسرائيلي، و إنها الجهة الأوربية الأمريكية التي دخلت في حرب صليبيّة معلنة وغيرمعلنة مع العالم الإسلامي.

السادسة: الشبهة التي قد تدعم لوم اللائمين هي أن تركيا (المسلمة) قد وقفت الى جانب المنادين بإسقاط النظام السوري وتسليح المعارضة، فلماذا لم تفعل الجمهورية الإسلامية ذلك؟!

وهنا نريد أن نقول بصراحة أن هذه الرؤية لتركيا فيها كثيرمن الشطط.

نعم، الشعب التركي شعب مسلم شهم شجاع مؤمن متديّن، ولذلك فإن القيادة الحاليّة كانت ملزمة ـ كي تبقى ـ أن تتظاهربالتديّن والدفاع عن بعض المظاهرالإسلامية. ولكن.

أليست تركيا من البلدان الإسلامية القليلة التي تربطها علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية علنية بإسرائيل؟

ألـم تعلـن تركيـا (والمقصـود الحكومـة التركيـة) أنهـا قـد تضـطرّالى حماية حـدودها بالاسـتعانة بالنـاتو؟ أليس هـذا تلـويح بإعطـاء الضـوء الأخضـرللنـاتو؟ ألـم يعلـن رئـيس وزرائهـا أنـه يـدعو بلـدان الصـحوة الإسـلامية إلـى تطبيـق الـنهج (العلمـاني) فـي بلدانها؟

ألا يعلـن الغـرب باسـتمرارأنـه يؤيـد النمـوذج (الإسـلامي التركي)؟!

إذن، لمـاذا يـدعوننا الإخـوة إلى الانخـراط فـي هـذه الموجـة التـي تتجـه نحـوإضـعاف روح المقاومـة فـي منطقتنـا، ونحـو دعـم تيـار الاستسلام والانبطاح والذوبان؟!

إن الجمهوريـة الإسـلامية مـن خـلال ثلاثـة عقـود مـن التجـارب الصـعبة التـي خاضـتها فـي مواجهـة دسـائس قـوى الاسـتكبار تعلـم علـم اليقـين أن انهيـارالنظـام السـوري يعنـي انهيـارهويّـة العـالم العربـي والإسـلامي، ويعنـي دفـع سـوريا إلـى حالـة تخلـق الإحباط واليأس في كل تيارالصحوة الإسلامية.

إن الجمهوريـة الإسـلامية أثبتـت فـي مواقفهـا الخارجيـة أنهـا مبدئيـة وأنهـا لاتنزلـق فـي الفخـاخ التـي ينصـبها أعـداء الأمـة الإسلامية باسم شعارات هي «كلمة حقّ يراد بها باطل».

نأمـل مـن كـل الإخـوة اللائمـين أن ينظـروا إلـى الأمـوربعـين (البصـيرة) وبعـين المسـلم (الكـيّس الفَطِن)،وبـذكاء يتغلّـب على المزالق.

التقريب المذهبي
في مشروع الإمام الصدر

ذكرنا أن السيد الصدر في طرحه المشروع الإسلامي للحياة بلغة العصر وعلى مستوى احتياجات العصر، كان صاحب أعظم مشروع تقريبي جعل المسلمين سنة وشيعة أمام هدف إعادة الإسلام إلى الحياة.

واستمرّ على هذا الطريق يعالج القضية المذهبية على مستوى تجاوز الإطار المذهبي في الاعتماد على المصادر، وفي بياناته التي وجهها إلى الشعب العراقي في أيام المحنة، وفي معالجته الموضوعية للمسائل الخلافية. وهذا ما يعرضه تلميذه **الشيخ محمد رضا النعماني** في مقال تحت عنوان:[1]

«علاج الحواجز النفسية للتقريب بين المذاهب الإسلامية عند الإمام الشهيد الصدر(رض)».

يقول:

«جذور الخلاف بين أهل السنة والشيعة تعود في جانبها الأكبر إلى عامل نفسي، والإمام الشهيد الصدر رغم قصر عمره الجهادي مارس ألوان الجهود لإزالة هذا الحاجز النفسي.

١- *رسالة التقريب*، العدد ٢٧، ص ١٩٩.

هـذه الممارسـة نلحظهـا فـي خطابـه إلـى العـراقيين، وفـي اسـتناده إلـى مصـادرأهـل السـنة الحديثيـة والفقهيـة فـي دراسـاته، وفـي معالجتـه لقضـية علـى غايـة مـن الحساسـية المذهبيـة مثـل قضـية فدك.

لا نسـتهدف بهـذا البحـث إيجـاد حلـول ومعالجـات للخلافـات العقائديـة والفقهيـة والسياسـية - الممتـدة الجـذورعبـرالتـاريخ - بـين الفـرق والمـذاهب الإسـلامية مـن خـلال مناقشـة علميـة وموضـوعية لمختلـف المواضـيع والقضـايا التـي هـي محـلّ خـلاف بـين المسـلمين، والاسـتدلال علـى مـاهو حـق منهـا والاتفـاق عليـه ورفض ماعداه.

إن فكـرة مـن هـذا القبيـل لـوأتيحـت لهـا الظـروف الموضـوعية والأجـواء المناسـبة لأمكنهـا أن تزيـل الكثيـرمـن الخلافـات المستعصـية بـين المـذاهب الإسـلامية، وهـوالاتجـاه الـذي تبنّـاه الإمـام السـيد عبـد الحسـين شـرف الدين(قـدس سـره) فـي محاوراتـه ومؤلفاتـه مثـل *المراجعـات*، *والـنص والاجتهـاد*، *ومسـائل فقهيـة*، والتـي حـاول فيهـا معالجـة المسـائل الخلافيـة العقائديـة والفقهيـة والتاريخيـة معتمـدًا فـي ذلـك علـى صـحاح المـذاهب الإسـلامية لإثبـات أن مايعتقـده أتبـاع مدرسـة أهـل البيـت لـه جـذور قوية ومتينة في أصول ومصادرالمذاهب الإسلامية الأخرى.

ويجـب أن نعتـرف أن أسـاليب المعالجـة والنقـاش حتـى و إن

اتسمت بأعلى درجات الموضوعية والصراحة لا تنتهي إلى الإيجابية المطلوبة **لأن جذورالخلاف في أكثرالأحيان جذور نفسية والحواجزتأخذ نفس الطابع**. وفي ظل هذا الوضع لا يمكن الوصول إلى مامن شأنه تمهيد الأجواء لبناء الأمة الواحدة المتفقة على الحد المطلوب في رؤيتها العقائدية والفقهية والتاريخية...

إن من الحقائق التي يجب أن لا نغفلها، هي أن أحد أهم جوانب مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية جانب نفسي موروث تلقّته الأجيال من دون دراسة أو مناقشة تتيحان التحرّر منه والانطلاق من بوتقته نحو جوّ من التأمل والمعالجة الموضوعية، الأمرالذي أدى إلى تراكم الكثيرمن الحساسيات التي شكّلت عقبة كبيرة في طريق محاولات التقريب.

ويجب أن لا نغفل أن السياسة لعبت دورًا كبيرًا ــ على امتداد التاريخ ــ في تعميق الفجوة النفسية بين أتباع تلك المذاهب، فتارة تصوّره على أنه خطريستهدف القضاء على أتباع هذا المذهب أو ذاك، وأخرى على أنه عقيدة لا يجوز التنازل عنها وهكذا.

ولو تصفّحنا أوراق التاريخ لوجدنا أن الكثيرمن الدماء سفكت بسبب سياسات الحكّام في إطارتعميق الخلافات

المذهبية و إخراجها من إطارها العلمي والفقهي إلى الوضع الأصعب المتمثل بالحواجزالنفسية والروحية، وتسخيرها لمصلحة الحكام وليس لمصلحة الإسلام والأمة الإسلامية.

وفي هذا البحث المقتضب أحاول أن أستعرض أهم الخطوات التقريبية التي خطاها الإمام الشهيد الصدر(رضوان اللّه عليه). ومع أن يد الإجرام حرمت منه الأمة في وقت مبكر جدًا، فلم يتح له أن يمارس دوره الكامل في تطبيق أفكاره ومشاريعه التي منها توحيد الأمة وتجميع صفوفها، فإن نزرًا يسيرًا قد عرفناه عن تلك الأفكاروالمواقف والتصورات أعطانا رؤية واضحة عن هذا الجانب في موقفه من عملية التوحيد والتمسّك بعرى الإسلام والإيمان.

ويجب أن نؤكد مرة أخرى على أنه يجب اعتبارحركة الإمام الشهيد الصدرفي هذا المجال حركة تتّسم بأهمية خاصة بحيث يحق لها أن تتصدّرالخطوات الإيجابية الأخرى التي بدرت من علماء المسلمين الواعين من السنة والشيعة، وذلك لما يتمتع به الإمام الشهيد الصدرمن موقع لدى الشيعة، ولما يمثل من شموخ وتبحّرفي عالم المعرفة الإسلامية والبشرية، وكذلك الظروف السياسية والاجتماعية وأجواء الحوزات والمرجعيات التي قد لا تتقبّل انفتاحا كبيرًا بهذه الدرجة .

وحينئذ يجب أن ندخل هذه الحقائق في حسابنا عند دراستنا لخطواته التقريبية الجادة والهادفة بين المسلمين.

إن أهم خطواته العملية والتي تعتبر رائدة في هذا المجال يمكن تلخيصها بمايلي:

وحدة كيان الفقه الإسلامي

الأولى- من الملاحظ أن الامام الشهيد الصدر لم يقتصر في مؤلّفاته على الكتب الشيعية بل اعتمد كذلك على كتب أهل السنة ومصادرهم معتبرًا الفقه الإسلامي كيانًا واحدًا مع مافيه من تعدد الاجتهاد والمذاهب، فمثلًا اعتمد في كتاب *اقتصادنا* في محاولته لبلورة النظام الاقتصادي الإسلامي على مجموعة من المصادر الإسلامية السنية، منها: كتاب *الأحكام السلطانية* للماوردي[1]. وكتاب *المغني* لابن قدامه[2]، وكتاب *الأُم* للشافعي[3]، وكتاب المحلّى، لابن حزم[4]، *والمدونة الكبرى*[5]، ومواهب *الجليل* للحطاب[6]، ونهاية *المحتاج* للرملي[7]،

١- *اقتصادنا* / ٤٤٣ و ٤٧٤.

٢- المصدر نفسه، ٧١٤.

٣- المصدر نفسه، ٤٦٢.

٤- المصدر نفسه، ٤٥٩.

٥- المصدر نفسه، ١٩٥.

٦- المصدر نفسه، ٥٠٨.

٧- المصدر نفسه، ٥١١.

والمبسوط للسرخسي[1]، *والفقه على المذاهب الأربعة*[2]. وغيرها من المصادر السنية.

ولم يكن (رحمه الله) بصدد نقاش الآراء الفقهية للمذاهب الإسلامية، وإنما كان بصدد اكتشاف هيكلية النظام الاقتصادي الإسلامي.

ومع ذلك فنحن لا ننكر أن المصادر وطرق الاستنباط للأحكام الشرعية تختلف بين مدرسة أهل البيت وبين المذاهب الإسلامية الأخرى، سواء في القيمة العلمية للرأي الفقهي، أو في قيمة وحجة المصادر الروائية والفقهية، ومع ذلك فإننا على صعيد الواقع ننتهي إلى نتيجة واحدة.

إن هذا اللون من التفاعل الإيجابي والتعامل العلمي يجعل السني يشعر بأنّ لرأيه الفقهي أهمية وموقعًا عند أخيه الشيعي، وكذلك العكس. فيؤدي في النتيجة إلى روح التفاعل والانفتاح ويعزز روابط الأخوة، ويصدّع من قوة الحواجز النفسية.

خطابه الإسلامي

ثانيًا - أصدر الامام الشهيد الصدر(رضي الله عنه) بيانًا وجّهه

١- المصدر نفسه، ٥٧٩.

٢- المصدر نفسه، ٦١٤.

إلى الشعب العراقي (عام ١٩٧٩م) وكما وقتها محتجزًا من قبل السلطة وذلك قبل استشهاده بعدة أشهر، حمل العبارات التالية:

«أيها الشعب العظيم، إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك، لأن المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر».

«**وإني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء**، ومن أجل العربي والكردي على السواء حين دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعًا، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعًا».

وفي مقطع آخر يقول: «**فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي**. إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة أن المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضدّ العدو المشترك.

وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر: **إن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني**، إن الحكم السني الذي مثّله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل عليٌّ السيف للدفاع عنه إذ حاب جنديًا في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأول

أبـي بكـر، وكلّنـا نحـارب عـن رايـة الإسـلام، وتحـت رايـة الإسـلام مهما كان لونها المذهبي.

إن الحكـم السـني الـذي كـان يحمـل رايـة الإسـلام قـد أفتـى علمـاء الشـيعة ــ قبـل نصـف قـرن ــ بوجـوب الجهـاد مـن أجلـه، وخـرج مئـات الآلاف مـن الشـيعة وبـذلوا دمهـم رخيصًـا مـن أجـل الحفـاظ علـى رايـة الإسـلام ومـن أجـل حمايـة الحكـم السـني الذي كان يقوم على أساس الإسلام»[1].

ومما لا ريب فيه أن هـذه الوثيقـة تعتبـر من أهـم الوثـائق التـي يمكـن أن تسـاهم فـي معالجـة الحـواجز النفسـية بـين أبنـاء الأمـة الإسـلامية، وذلـك لأن السـيد الشـهيد الصـدر حينمـا أصـدر هـذا البيـان كـان قـد صـمّم علـى الاستشـهاد فـي سـبيل اللّه لإيمانـه بـأنّ المرحلـة الجهاديـة والسياسـية تتطلـب ذلـك، وقـد فصّـلنا ذلـك فـي كتـاب *سـنوات المحنـة وأيـام الحصـار* الأمـر الـذي يجعـل كـل باحـث موضـوعي يـدرك أن الامـام الصـدر لـم يقصـد المجاملـة أو المحاباة بـل كـان يهـدف حقًـا إلـى معالجـة مشـكلة الفُرقـة والتشـتت مـن جانـب، وتوحيـد الامـة فـي إطـار الإسـلام مـن جانب آخر.

و إذا لاحظنـا جـذور أسـباب المشـكلة نجـد أن أهمهـا هـو الموقـف مـن الخلفـاء الراشـدين، فالمسـلم السـني يـرى فـيهم مـثلًا

١- من بيان مسجل بصوته (رضي الله عنه).

ونموذجًا جسّد القيم والمبادئ الإسلامية، ويرى الشيعي أن اجتهادات بعض الخلفاء أو مواقفهم تنافي الخط الإسلامي الذي يعتقد بصحته ويتمسّك به على أساس أنه الخط الذي يمثل المسيرة النبوية، ويرى مثلًا أن كل اجتهاد في مقابل النص على إمامة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) اجتهاد مرفوض لا يحمل قيمة دينية، في حين يرى السني أنه جهد علمي اجتهادي للفقيه فإن أصاب المجتهد فله أجران وإن أخطأ فله أجر.

وعلى هذا الأساس ـ وهو الجزء الأكبر من العلة ـ بدأت الحواجز النفسية تتصاعد وتتعمق مدعومة بجهود الحكّام الذين عمّقوها إلى أبعد الحدود، وبدأت تنخرفي صميم الكيان الإسلامي العام.

وما من شك أن علاج هذه القضية يحتاج إلى زمن طويل وجهود مكثّفة من الطرفين، إلا أن هذا لا يمنع من التوافق على احترام كلا الطرفين لعقيدة الآخر وآرائه السياسية وغيرها والوصول ولو إلى الحد الأدنى من الوفاق والتوحّد. وفي هذا الضوء أعتقد أن الإمام الشهيد الصدر سار بهذا الاتجاه، **فلم يجعل الاختلافات المذهبية مبررًا لعدم التوحّد، فنراه قد اعتبر نفسه وكيانه ملكًا للمسلم السني كما هو للمسلم الشيعي** فيقول: «و إني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في

هـذه الأمـة بـذلت هـذا الوجـود مـن أجـل الشـيعي والسـني علـى السواء».

ويقول: «فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي».

ومما لاشك فيه أن لهذا التخاطب الأبوي والأخوي أثرًا إيجابيًا فعّالا في تمزيق الحاجز النفسي وتبديد قوته، فما أجمل أن تجد الأمة ـ بمختلف مذاهبها ـ قائدًا شيعيًا بل علمًا من أعلامها يخاطب الجميع بروح الأبوة والأخوة فيقول: **أنا لكم جميعًا**.

وذكر ثانيًا أن الخلاف العقائدي والسياسي في إطار الدين لايجوز أن يحول دون التعاون والتكاتف في سبيل خدمة الإسلام والدفاع عنه. واستشهد لذلك بمثالين:

الأول ماكان في صدر الإسلام حيث قال: «حمل علي السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديًا في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر».

وذكر مثالًا آخر من التاريخ الحديث وذلك حينما تعرّض الحكم العثماني لضربات الإنجليز فوقف علماء الشيعة إلى جانب الحكم العثماني وأفتوا بوجوب الدفاع عنه لأنه رافع لراية الإسلام فقال: «إن الحكم السني الذي كان يحمل

راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله وخرج مئات الآلاف من الشيعة وبذلوا دمعهم رخيصًا من أجل الحفاظ على راية الإسلام» لماذا؟ لأن الهدف «أن نحارب عن راية الإسلام وتحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي».

والموضوعية تقتضي أن نعترف أن هذا الخطاب المفتوح والصريح لا يحل مشكلة الخلافات المذهبية بين المسلمين، ولكنه يشكل البوابة الكبيرة التي يمكن الدخول من خلالها والقضاء على المشكلة النفسية وفتح آفاق الحوار الموضوعي للاتفاق ولو على الحد الأدنى من الوفاق والائتلاف.

ثم بيّن (رضوان اللّٰه عليه) أن من أهم أسباب تعميق الخلافات وتهويلها هو الاتجاهات السياسية والقادة الذين تحكمهم مصالحهم الخاصة فقال: «إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة أن المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضدّ العدو المشترك، وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: إن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني».

لغة الاحترام

ثالثًا - كَتَب السيد الشهيد الصدر(رضي الله عنه) في أوائل شبابه بحثًا عن فدك أسماه *فدك في التاريخ* عالج فيه قضية فدك علاجًا موضوعيًا فريدًا.

ولعل أهم ماميّزالبحث في إطارما نحن فيه من معالجة الحواجزالنفسية الأمورالتالية:

١- لم يستعمل (رضي الله عنه) عبارات من شأنها جرح عواطف ومشاعرالسنة، فنراه يعبّرعن الخلفاء بعبارات مناسبة اعتادوها عند ذكرهم لهم، راجع على سبيل المثال الصفحات التالية من فدك في التاريخ، ٢٦، ٤٤، ٥٩، ٧٣، ١٥٠، وهو يريد أن يعبّرعن الأسلوب الأمثل في كيفية التخاطب بعيدًا عن كل ما من شأنه تفريق المسلمين أو جرح مشاعرهم أو الإساءة إلى معتقداتهم.

٢- تعتبرقضية فدك من القضايا الحساسة وتتمتع بأهمية خاصة لدى أتباع أهل البيت. وقد بحث هذا الموضوع على امتداد التاريخ الكثيرُمن علماء المسلمين سنّة وشيعة. ومن ملاحظة كل ذلك نجد أن الموقف من فدك متباين حتى لدى الخلفاء أنفسهم، وقد لخّص الإمام الشهيد الصدرذلك فكتب عنها مايلي: «فدك قرية في الحجازبينها وبين المدينة

يومان وقيل: ثلاثة. وهي أرض يهودية في مطلع تاريخها المأثور - إلى أن يقول - وابتدأ بذلك تاريخها الإسلامي فكانت ملكًا لرسول اللّه (صلى الله عليه وآله) لأنها مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ثم قدّمها لابنته الزهراء وبقيت عندها حتى توفي أبوها (صلى الله عليه وآله) فانتزعها الخليفة الاول (رضي الله عنه) على حد تعبير صاحب *الصواعق المحرقة* وأصبحت من المصادر المالية العامة وموارد ثروة الدولة يومذاك، حتى تولّى عمر الخلافة فدفع فدكًا إلى ورثة رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) إلى أن تولّى الخلافة عثمان بن عفان فأقطعها مروان بن الحكم على ماقيل، ثم يهمل التاريخ أمر فدك بعد عثمان فلا يصرّح عنها بشيء، ولكن الشيء الثابت هو أن أمير المؤمنين عليًا انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان كسائر مانهبه بنو أمية في أيام خلافتهم»[1].

ثم إن التاريخ الذي أعقب الخلافة الراشدة وتولّي معاوية بن أبي سفيان ومن بعده من خلفاء آل أبي سفيان يحمل نفس التذبذب في الموقف من فدك فتارة تُسلّم لورثة الزهراء (سلام اللّه عليها) وأخرى تنتزع منهم وهكذا[2].

١- *فدك في التاريخ* / ٢٦.

٢- لمزيد من التفصيل راجع كتاب *فدك في التاريخ* / ٢٧ - ٣٠.

وبـدأ السـيد الشـهيد الصـدر (رضـي الله عنـه) دراسـة هـذه القضـية، فعـالج جوانبهـا المختلفـة علاجًـا تاريخيًـا وفقهيًـا وعقليًـا وبـروح موضـوعية مـن دون جـرح للمشـاعر، أو اسـتفزاز لأحـد. وقبـل أن يبـدأ بالمعالجـة اشـترط علـى نفسـه وعلـى كـل مـؤرخ وباحـث التـزام التحـرر من القيـود التـي مـن شـأنها طمـس الحقـائق أو تشويشـها فيقـول: «فـإذا كنـت تريـد أن تكـون حـرًا فـي تفكيـرك، مؤرخًـا لـدنيا النـاس لا روائيًـا يسـتوحي مـن دنيـا ذهنـه مايكتـب فضـع عواطفـك جانبًـا، أو إذا شـئت فـاملأ بهـا شـعاب نفسـك فهـي ملكـك لا ينازعـك فيهـا أحـد، واسـتثن تفكيـرك الـذي بـه تعـالج البحـث فإنـه لـم يعـد ملكـك بعـد أن اضـطلعت بمسـؤولية التـاريخ وأخـذت علـى نفسـك أن تكـون أمينًـا ليـأتي البحـث مسـتوفيًا لشـروطه قائمًـا علـى أسـس صـحيحة مـن التفكير والاستنتاج»[1]...

ثـم نـاقش صـيغ حـديث: «إنـا معاشـر الانبيـاء لا نـورث» هـل تـدل علـى أن تركـة النبـي حقًّـا لا تـورث، أو إن لـه مـداليل أخـرى قـدت دل عليـه نقـاط التخلخـل والضـعف فيـه وتجعلـه غيـر قـادر علـى المواجهـة العلميـة المعروفـة لـدى الفقهـاء عنـد معالجـاتهم للنصوص الروائية؟

١- *فدك في التاريخ* / ٣٥.

ليس هدفنا عرض ماجاء في كتاب *فدك في التاريخ* بل الهدف هو أسلوب معالجة مشكلة من أهم المشاكل التاريخية والعقائدية علاجًا فقهيًا ومنطقيًا، محافظًا في ذلك على المستوى الأخلاقي الرفيع والأمانة التاريخية والابتعاد عن كل ما من شأنه إثارة الأحقاد والعداوات[1].

ولا أعتقد أن أحدًا - سنيًا كان أم شيعيًا - لا يستسيغ هذا اللون من النقاش الموضوعي والمعالجة العلمية، فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أينما وجدت، والموضوعية هي المقدّمة الضرورية التي من دونها تفقد حركة البحث عن الحكمة هديها، وهي في منهج الإمام الشهيد الصدر يجب أن تكون مقرونة بالخُلق الإسلامي الرفيع، ففدك بما ترمز إليه، والموقف منها سواء كان إيجابيًا أم سلبيًا لا يخلق مبررًا لخلافات تخرج عن إطارها إلى حد القطيعة والفرقة الكراهية، ويجب أن تطوّق الخلافات - العقائدية والتاريخية والفقهية وغيرها -

---

١- صحيح أن الشهيد الصدر قدم في كتابه هذا أفضل مَثَل على الروح العلمية والموضوعية لمعالجة مسألة حسّاسة طالما استغلت لإثارة النعرات الطائفية بين السنة والشيعة. غير أنه ارتفع إلى أعظم من هذا المستوى حين لم يتطرق في كل دراساته التالية إلى مسألة خلافية بين المسلمين، بل ركز على مشتركات الأمة الإسلامية، وماتواجهه من تحديات في مجال العقيدة والمجتمع والاقتصاد ونظام الحكم. وارتفع أكثر في خطابه الأخير إلى الشعب العراقي كما بيّن الباحث. ولذلك لا نستبعد ماورد بعض تلاميذه أنه أوصى بعدم إعادة طباعة كتاب: *فدك في التاريخ*. رغم عظمة أسلوب الكتاب في المعالجة (ثقافتنا).

ضمن حدودها في ظل احترام الرأي والرأي المقابل.

وأعتقد أن أسلوب الإمام الشهيد الصدر في المعالجة استكمل الشروط الموضوعية والأخلاقية إضافة إلى ما اتسم به من شفافية وانفتاح، وفوق ذلك كله الخلق الرفيع الذي من شأنه تحطيم أقوى الحواجز والعقد النفسية التي كانت ولاتزال تشكّل أكبر عقبة في طريق توحيد أمة التوحيد» (انتهى مقال الشيخ رضا النعماني).

ملخص المشروع التقريبي للسيد الصدر

١- تقديم المشروع الإسلامي للحياة بجوانبه العقائدية والعملية.

٢- التحرر من الذاتية والذوبان في ذات الله، وهذا ما اتّسم به الشهيد الصدر وجعله يتجاوز كل الأطر الضيقة.

٣- دخول الساحة السياسيّة للدفاع عن مصالح الأمة بأجمعها دون أن يحدّد نفسه بطائفة.

٤- مناقشة المسائل الخلافية بروح علمية وبأسلوب يتّسم بالحكمة والموعظة الحسنة، وقلّما تطرق إلى هذه المسائل، فقد كان تركيزه على المشتركات.

التجديد والزّمن
رؤية الشهيد الصّدر لمؤثرات التجديد

حسين الشّامي*

ارتبط مصطلح (التجديد) بالجانب الفكري إلى حد كبير، بحيث صار ينظر إلى هذه المفردة على إنها تقتصر على هذا الجانب دون سواه. وقد خضع لهذا الفهم جمهور من الكتاب والمفكرين والمثقفين، فقيّموا التجديد على إنه ظاهرة فكرية أولًا وأخيرًا.

ورغم صحة هذه الرؤية في عمومها، إلاّ أنها لا تعكس الحقيقة كاملة، فالتجديد لا ينحصر على الحقل الفكري وحده، بل يتعداه إلى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، باعتباره مشروعًا حضاريًا في حياة الأمّة والمجتمع. ومن هنا يكون الفكر أحد آفاق المشروع التجديدي الحضاري، مع التأكيد على قيمة هذا الحقل وموقعه في الحالة الحضارية بشكل عام، على أساس أنَّ البنية الفكرية هي القاعدة الأساسية في انطلاق المشروع التجديدي، وهي

---

*- مفكّر عراقي.

التي تحدد هويته ومتجهاته العامة في الواقع الاجتماعي.. وتدخل أيضًا في تحديد مساحته الجغرافية.. كما أنها قد ترسم مدياته المستقبلية وقدرته على الامتداد عبر الزّمن.

إنّ التجديد فعل حضاري محرك في الحياة الاجتماعية وله مجالاته المتنوعة ومظاهره المختلفة التي تتحدد على أساس حاجة الواقع الاجتماعي، فقد يفرض الواقع في بعض الفترات أن يكون مجال التجديد في البناء الفكري، وقد يفرض في فترات أخرى الحركة السياسية أو الموقف الثوري. وهنا يأتي دور الرمز المجدد وقدرته في تحديد الخيار المناسب.

عوامل التجديد في رؤية الشهيد الصّدر:

عندما يدرس الإمام الشهيد رضوان الله عليه، المشاريع التجديدية فإنه يقدم رؤية موضوعية شمولية في تقييم التجربة -موضوع الدّراسة -وذلك لعاملين أساسيين:

الأوّل: ما تميزبه الشهيد الصّدر من قدرة عالية في كل المجالات التي تناولها بالبحث والدّارسة، وهذه سمة طبعت حياته العلمية بالكامل رغم قصر عمره المبارك. فهو باحث من طراز خاص، إذ إنه لا ينطلق في دراسته من محاولات تجزيئية تنحصر في جو الدّراسة، بل إنه (رض) يجعل الدّراسة — كمنهج عام عنده — خاضعة لرؤية شمولية عامة يندرج

موضوع الدّراسة ضمن سياقاتها الكلية. وعلى هذا فإنّ رؤيته للمشاريع التجديدية تستند إلى العمق الشّمولي الذي تحتاجه مثل هذه الدّراسات عادة.

الثاني: إنّ الشهيد الصّدر هو نفسه مجدد وصاحب حركة تجديدية مؤثرة في واقعه الثقافي والاجتماعي والسياسي، الأمر الذي يجعل من تقييماته للتجارب التجديدة على قدر كبير من الأهمية، لأنها منطلقة من عقلية تجديدية حقيقية ومن نظرة ترصد الماضي والحاضر والمستقبل بهموم التجديد.

وسنحاول هنا أن ندرس تجربة الشيخ الطوسي كنموذج للتجديد كما تناولها الشهيد.

رؤية الشهيد الصدر لتجربة الطوسي:

يرى الشهيد الصدر أنّ مساهمة الشيخ الطوسي في علم الأصول لم تكن مجرد استمرار للخط، بل كانت تطورًا جديدًا ضمن التطور الشامل في التفكير الفقهي والعلمي الذي حققه. وقد تمثل ذلك في مجال الأصول بكتابه *العدة* وفي مجال الفقه بكتابه *المبسوط*. ومن خلال هذا الإنجاز يعتبر الشهيد الصدر أنّ الشيخ الطوسي حد فاصل بين عصرين يطلق عليهما العصر التمهيدي والعصر الكامل، «فقد وضع هذا الشيخ الرائد حدًا للعصر التمهيدي وبدأ عصر

العلـم الـذي أصـبح الفقـه والأصـول فيـه علمًـا لـه دقتـه وصـناعته وذهنيته العلمية الخاصة»[1].

ثـم يتنـاول الشـهيد الصـدر دراسـة هـذه التجربـة التجديـدة فـي ضـوء موقعهـا فـي الترتيـب الزمنـي للحركـة العلميـة، فيعتبـر أنّ البحـث الفقهـي الـذي سـبق الشـيخ الطوسـي كـان يقتصـر فـي الغالـب علـى اسـتعراض المعطيـات المبشـارة للأحاديـث والنصـوص أي أصـول المسـائل، ويـرى فـي كتـاب *المبسـوط* «محاولـة ناجحـة عظيمـة فـي مقـاييس التطـور العلمـي لنقـل البحـث الفقهـي مـن نطاقـه الضـيق المحـدود فـي أصـول المسـائل إلـى نطـاق واسـع يمـارس الفقيـه فيـه التفريـع والتفصـيل والمقارنـة بـين الأحكـام وتطبيـق القواعـد العامـة ويتتبـع أحكـام مختلـف الحـوادث والفروض على ضوة المعطيات المباشرة للنصوص»[2].

ويؤكـد الإمـام الشـهيد علـى أهميـة التـرابط فـي مشـروع التجديـد الفكـري مـع حركـة الـزمن وذلـك بقولـه: «إنّ التطـور الـذي أنجـزه الشـيخ «الطوسـي» فـي الفكـر الفقهـي كانـت لـه بـذوره التـي وضـعها قبلـه أسـتاذه المرتضـى والشـيخ المفيـد وقبلهمـا ابـن أبـي عقيـل وابـن الجنيـد.. وكـان لتلـك البـذور أهميتهـا مـن الناحيـة العلميـة حتـى نقـل عـن أبـي جعفـر بـن معـد الموسـوي وهـو

١- الصدر، المعالم الجديدة للأصول، ص ٥٦ - ٥٧.

٢- الصدر، المعالم الجديدة للأصول: ص ٦٠.

متأخرعن الشيخ الطوسي أنه وقف على كتاب ابن الجنيد الفقهي واسمه *التهذيب* فذكرأنه لم يرلأحد من الطائفة كتابًا أجود منه ولاأبلغ ولاأحسن عبارة ولاأرقّ معنى منه، وقد استوفى فيه الفروع والأصول وذكرالخلاف في المسائل واستدل بطريقة الإمامية وطريق مخالفيهم. فهذه الشهادة تدل على قيمة البذورالتي نمت حتى آتت أكلها على يد الطوسي»[1].

ويلخص الشهيد الصدررؤيته لتجربة الطوسي التجديدية في بعدها الزمني بقوله: «ما مضى المجدد محمد بن الحسن الطوسي (رض) حتى قفزبالبحوث الأصولية وبحوث التطبيق الفقهي قفزة كبيرة وخلّف تراثًا ضخمًا في الاصول يتمثل في كتاب *العدة* وتراثًا ضخمًا في التطبيق الفقهي يتمثل في كتاب *المبسوط*. ولكن هذا التراث الضخم توقف عن النمو بعد وفاة الشيخ المجدد طيلة قرن كامل في المجالين الأصولي والفقهي على السواء».

وهذه الحقيقة بالرغم من تأكيد جملة من علمائنا لها تدعوإلى التساؤل والاستغراب، لأن الحركة الثورية التي قام بها الشيخ في دنيا الفقه والأصول والمنجزات العظيمة التي حققها في هذه المجالات كان المفروض والمترقب أن تكون

١- المصدرالسابق، ص ٦٢ - ٦٣.

قـوة دافعـة للعلـم وأن تفـتح لمـن يخلـف الشـيخ مـن العلمـاء آفاقًـا رحيبـة للإبـداع والتجديـد ومواصـلة السـيرفـي الطريـق الـذي بـدأه الشـيخ، فكيـف لـم تأخـذ أفكـارالشـيخ وتجديداتـه مفعولهـا الطبيعي في الدفع والإغراء بمواصلة السير؟!»[1].

ويقـدم الإمـام الصّـدرتفسـيره لهـذه الظـاهرة الغريبـة، مـن خـلال دراسـته للظـروف الزمانيـة، حيـث يـرى أنّ هجـرة الطوسـي إلى النجـف الأشـرف فصـلته عـن حوزتـه المبدعـة فـي بغـداد، وأنـه ركّـزعلـى التفاعـل مـع أفكـاره العملاقـة، فكـان لابـد مـن مـرور فتـرة زمنيـة حتـى تصـل إلـى مسـتوى اسـتيعاب أفكـاره والتفاعـل معها حيث كتب يقول:

«فهجرتـه إلـى النجـف، وإن هيأتـه للقيـام بـدوره العلمـي العظـيم لمـا أتاحـت لـه مـن تفـرغ، لكنهـا فصـلته عـن حوزتـه الأساسـية، ولهـذا لـم يتسـرب الإبـداع الفقهـي العلمـي مـن الشـيخ إلى تلـك الحـوزة التـي كـان ينـتج ويبـدع بعيـدًا عنهـا، وفـرق كبيـر بـين المبـدع الـذي يمـارس إبداعـه العلمـي داخـل نطـاق الحـوزة ويتفاعـل معهـا باسـتمراروتواكـب الحـوزة إبداعـه بـوعي وتفـتح، وبين المبدع الذي يمارس إبداعه خارج نطاقها وبعيدًا عنها.

ولهـذا كـان لابـد –لكـي يتحقـق ذلـك التفاعـل الفكـري الخـلاق –أن يشـتد ساعـد الحـوزة الفتيـة التـي نشـأت حـول

١- الصّدر، المعالم الجديدة للأصول، ص ٦٢ - ٦٣.

الشيخ في النجف حتى تصل إلى ذلك المستوى من التفاعل من الناحية العلمية، فسادت فترة ركود ظاهري بانتظار بلوغ الحوزة الفتية ذلك المستوى، وكلّف ذلك العَلَم أن ينتظر قرابة مائة عام ليتحقق ذلك، ولتحمل الحوزة الفتية أعباء الوراثة العلمية للشيخ حتى تتفاعل مع آرائه وتتسرب بعد ذلك بتفكيرها المبدع الخلاق إلى الحلة»[1].

ونستطيع أن نفهم من رؤية الشهيد الصدر في تفسيره هذا، أنّ الشيخ الطوسي سبق حركة الزمن في مشروعه التجديدي العملاق، وتقدم على واقعه بمسافة زمنية طويلة، ويمكن أن نتصور حجم هذا الإنجاز بشكله الحيّ عند التأمل في المراحل التي تلت مرحلة الطوسي والتي تحولت فيها النجف إلى المعقل الأوّل للفكر الشيعي بمنجزاته العلمية الرائدة.

ويقلّل الشهيد الصدر من أهمية التفسير السائد لظاهرة الجمود العلمي الذي أعقب الشيخ الطوسي والقائل بأن قداسة الشيخ الطوسي منعت الآخرين من العلماء من مناقشة آرائه. فيقدم سببًا آخر في تفسير هذه الظاهرة يسير في سياق الأوّل من حيث ارتباطه بعامل الزّمن، وهو أن الفكر الفقهي عند أهل السنّة في تلك الفترة قد تحجم في دائرة التقليد وأغلق باب الاجتهاد رسميًا، وبذلك انكمش الفكر الأصولي منه

١- الصّدر، المعالم الجديدة للأصول، ص ٦٦.

ومني بالعقم –على حد قول السيد الشهيد _الأمرالذي جعل التفكيرالعلمي لعلماء الشيعة يفقد أحد محفزاته المحركة.

ويؤكد الشهيد الصدرأن الحركة التجديدية التي أحدثها الشيخ الطوسي والتي عاشت توقفًا نسبيًا بعده، عادت من جديد للتفاعل بالمستوى الذي يتناسب مع أفكاره. وذلك على يد الفقيه المبدع محمد بن أحمد بن إدريس (ت٥٩٨) الذي انطلق في حركته التجديدة من تقدير دقيق للظروف الفكرية التي يعيشها الواقع العام والتي اتسمت بالجمود، فقرر أن يعيد الحياة فيها من جديد، وتمكن بالفعل من إحداث نقلة نوعية في الواقع الذي عاصره، على أنّ من المهم أن نتذكرأنّ هذه النقلة عندما حدثت فإنها أدركت حينذاك مستوى الشيخ الطوسي، وكأنّه كان لايزال حيًّا إلى تلك الفترة الزّمنية.

ويعود السيد الشهيد إلى تفسيرظاهرة الانطلاقة الجديدة للفكرالشيعي في تجربة إبن إدريس، مستندًا إلى حركة الزمن حيث يقول إنّ «الحوزة العلمية التي خلّفها الشيخ الطوسي سرى فيها روح التقليد لأنها حوزة فتية، فلم تستطع أن تتفاعل بسرعة مع تجديدات الشيخ العظيمة، وكان لابد لها أن تنتظرمدة من الزّمن حتى تستوعب تلك الأفكاروترتفع

إلى مستوى التفاعل معها والتأثيرفيها، فروح التقليد فيها كانت مؤقتة بطبيعتها»[1].

هذه باختصاررؤية الشهيد الصدرلتجربة الشيخ الطوسي التجديدية والتي يؤكد فيها رضوان الله عليه على أهمية عامل الزّمن في مشاريع التجديد التي ظهرت في تاريخ الفكر الإسلامي واستطاعت أن تفرض وجودها واستمراريتها مع حركة الزمن، وقد اخترنا نموذج الشيخ الطوسي في دراسة الشهيد الصدرباعتبارأنّ تجربته تمثل سبقًا لحركة الزمن.

التجديد وحركة الزمن في فكرالشهيد الصدر

يرى الشهيد الصدرأنّ المشروع التجديدي يتنامى من خلال عامل الزمن، حيث تكون كل مرحلة مقدمة للمرحلة التالية. وذلك في المجال الواحد من مجالات التجديد، ففي التجديد الفكري وبالتحديد التجديد الأصولي، يحدد الشهيد الصدرالعصورالثلاثة التالية:

أولًا: العصرالتمهيدي، ويعتبرـ قدس سره ـأنّ هذا العصر بدأ بابن أبي عقيل وابن الجنيد، وفيه وضعت البذور الأساسية لعلم الأصول.

ثانيًا: عصرالعلم، وهوالعصرالذي بدأ بالشيخ المجدد

١- الصّدر، المعالم الجديدة للأصول، ص ٧٠.

الطوسي فكان رائده ورمزه الأكبر. وفي هذا العصر تحددت معالم الفكر الأصولي على أساس البذور الأولى. وكان من رجال هذا العصر ابن إدريس والمحقق الحلّي والعلامة الحلّي والشهيد الأوّل.

ثالثًا: عصر الكمال العلمي، وبدأ هذا العصر على يد المجدد الوحيد البهبهاني أواخر القرن الثاني عشر الهجري، وفيه واصل رجال هذه المدرسة التجديدية مشروع البهبهاني التجديدي على امتداد فترة زمنية قاربت نصف قرن.

ويرى الشهيد الصّدر أنّ هذا التقسيم الزمني العام، تتفرع عنه تقسيمات زمنية فرعية حيث يقول: «ولا يمنع تقسيمنا هذا لتاريخ العلم إلى عصور ثلاثة، إمكانية تقسيم العصر الواحد من هذه العصور إلى مراحل من النمو، ولكل مرحلة رائدها وموجهها، وعلى هذا الأساس نعتبر الشيخ الأنصاري (المتوفى ١٢٨١) رائدًا لأرقى مرحلة من مراحل العصر الثالث وهي المرحلة التي يتمثل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مائة سنة حتى اليوم»[1].

وهكذا نرى أنّ الشهيد الصدر يؤكد على التجديد من خلال عامل الزمن وفق ترابط دقيق في العلاقة بينهما، نستطيع أن نلخصها بالمرتكزيين التاليين:

١- الصّدر، المعالم الجديدة للأصول، ص ٨٩.

الأوّل: أنّ الحركة التجديدية إنما تنبثق نتيجة اتجاه عوامل موضوعية تفرضها طبيعة الظروف العامة في مرحلة زمنية محددة، فقد يبرزاتجاه تجديدي يسبق الزمن كما هو الحال في تجربة الشيخ الطوسي، وقد يبرزاتجاه تجديدي يواكب الزمن ويمنع التخلّف عنه كما في تجربة الوحيد البهبهاني.

الثاني: أنّ الفترة الزمنية لطول العصرالعلمي إنما تتحدد في ضوء مهمة الحركة التجديدية وخصائصها المميزة مما يجعل إمكانية تقسيمه إلى مراحل زمنية متعددة كما في العصرالثالث لتطورعلم الاصول.

وفي الختام أوجّه الدّعوة من جديد إلى كل الإخوة المفكرين والباحثين إلى ضرورة الاستمرارفي دراسة الشهيد الصدرباعتبارها تجربة ومنهجًا ومدرسة رائدة في التجديد المعاصر.

وإني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء.

الشهيد محمد باقرالصدر

علاقة الأخلاق بالاقتصاد
في رؤية الشهيد الصدر

في كتاب «اقتصادنا» بجزئية تأكيد على الجانب الفكري والأخلاقي للنظام الاقتصادي الإسلامي، وهذه وقفات عند آراء السيد الشهيد في حقل العلاقة بين الاقتصاد الإسلامي والقاعدة الاخلاقية والفكرية في المجتمع الإسلامي.

أثرالتحديد الذاتي في الحقل الاقتصادي

يبدأ الإسلام عمله من داخل الإنسان.. ويصوغ محتواه الداخلي بشكل يرتب عليه كل تخطيطاته الاجتماعية والاقتصادية.. والإنسان المسلم بموجب هذه الصياغة تتحدد حريته في تعامله وتحركه، ولكن هذا التحديد غيرمفروض على الإنسان، بل إن دورالإنسان هو دورالمريد في هذا التحديد.. ولذا فسوف لا يشعربقيد يكبّله ولا بسلطة لابد أن يرضخ لها شاء أم أبى.

وقد لعبت هذه الرقابة غيرالمنظورة دورها في المجتع

الإسلامي وأدّت فعاليتها بمقدار قد يفوق الدور الذي تلعبه الدولة صاحبة التخطيط المركزي في عملية التنفيذ والتطبيق.

وقد شهد المجتمع الإسلامي إبان الشوط القصير الذي مرت فيه الرسالة بدور التطبيق أروع الصور التي برز فيها عطاء هذه الصياغة الداخلية وهذه التربية الخلقية السامية. فالمرأة الزانية التي تأتي رسول الله (ص) تطلب منه أن يطهرها، والسارق الذي يأتي بنفسه يطلب إقامة الحد عليه، والرجل الذي يطلب من الرسول أن يسمح له بأن يهب كل ما يملك في سبيل الله، كل تلك صور اعتاد المجتمع عليها وأصبحت الطابع المقوم للكيان الذي بناه الإسلام.. وماكانت هذه إلا ثمرة للصياغة التي أحكم الإسلام كل دقائقها وجزئياتها.. تلكم هي صياغة الشخصية الإسلامية، هذه الشخصية التي كانت ولاتزال مصدر خير وعطاء للبشرية جمعاء.

ولايزال هذا التحديد الذاتي يلعب دوره الآن في مجالات البرّ والإحسان بالرغم من ابتعاد المسلمين عن روح التجربة العملية للشريعة الإسلامية.

وما اندفاع ملايين المسلمين لأداء فريضة الزكاة وبقية حقوق الله بملء حرياتهم إلا ثمرة من عطاء هذه الصياغة وهذا التحديد بالرغم من انحطاط مستواهم الفكري والنفسي، **ولو قُدّر لتلك التجربة القصيرة التي مر بها الإسلام**

أن تمتد لشهدت الإنسانية أروع صورة للخلافة التي شاءها الله للإنسان على هذه الأرض. ولصنعت عالمًا زاخرًا بمشاعر العدل والرحمة ولا جتثّت كل دوافع الشروالظلم من نفس البشرية التي مُنيت بمناهج لاتفهم للتربية النفسية والصياغة الداخلية معنى، و إنما نظّمت الشكل الظاهري من علاقة الإنسان بمحيطه المادي، فراح هذا الإنسان وفق هذا المنهج الذي لا يمسّ جوهره يعيث في الأرض فسادًا، ويتفنّن في وسائل الدماروالتخريب.

الأخلاقية في الاقتصاد الإسلامي

من الصفات المهمة للاقتصاد الإسلامي هي الأخلاقية:

وتتمثل هذه الأخلاقية في الغاية والطريقة.

أ- الاخلاقية من ناحية الغاية: إن غاية الاقتصاد الإسلامي لا تنبع من واقع خارج حدود الإنسان، فالماركسية في تحديدها لحق العامل وللضمان الاجتماعي تنطلق من واقع وسائل الإنتاج وتطورها، وتنظرإلى الواقع المادي للإنسان كمحدد للشكل الاقتصادي الذي يسود، بينما ينطلق الإسلام في تحديده للقيم العملية التي يجب أن تسود من ناحية خلقية.

ب _ الأخلاقية من ناحية الطريقة: إن الإسلام في طريقته

يهتم بالعامل النفسي ويجعل الطريقة منسجمة مع أحاسيس ومشاعرالإنسان ومتفاعلة معها.. وعملية التكافل الاجتماعي قد تتمّ بأخذ الضرائب من الأغنياء عن طريق القوة و إعطائها إلى الفقراء، ولكن هذه الطريقة ليست في نظرالإسلام صحيحة و إن كانت تؤدي الجانب الموضوعي من الغاية وهي إشباع حاجة الفقراء ، بل يجب أن تكون الطريقة أخلاقية، **يجب أن ينبعث شعورالتكامل من وجدان الإنسان المسلم وينطلق من مشاعره.**

وهذا الاهتمام الكبيرمن قبل الإسلام بالأخلاقية يرينا مدى الاهتمام بالصياغة النفسية والروحية والخلقية للإنسان في المجتمع الإسلامي وبالتالي مدى الاهتمام بالتحديد الذاتي كمنطلق لتحقيق التوازن والتكامل الاجتماعي.

الاقتصاد الإسلامي يقوم على أرضية فكرية وخلقية

قبل أن أتكلم عن الأرضية الإسلامية أوضّح علاقة الأرضية بالمذهب والصلة المتبادلة بينهما. إن أي تخطيط اجتماعي أو اقتصادي لا يمكن أن يكتب له النجاح إلاّ بعد أن يكوّن إطارًا يستطيع أن يدمج الأمة ضمنه ولا يمكن لأي منهج أن يؤدي دوره الفعال الاّ إذا استطاع أن يحرّك الأمة ويفجّر طاقاتها بأن يبعث فيها حركة دائبة لا تعرف الملل.

ولو ألقينا نظرة على المناهج السائدة اليوم في أوربا لرأيناها تلتقي والأرضية الأوربية وتلتئم ومشاعرالإنسان الأوربي، فإنسان أوربا يعيش أخلاقية تتكون من مزيج من إيمان عميق بالحرية ونظرة متأصلة في الأرض لا ترتفع إلى السماء، وشعور واضح بالفردية والأنانية، وتمثل هذا جليًا في كل تطلعات الإنسان الأوربي العلمية والفكرية حينما ذهب يبحث عن أصله بين فصائل الحيوان وبدأ يفسرسيرالبشرية والصرح الإنساني كله على أساس الصراع والتناقض بين القوى المنتجة **وحتى إله المسيحية أنزله من السماء إلى الأرض وجسّده بهيئة كائن أرضي.**

ومن هذا المزيج انطلقت **فكرة الاقتصاد الحر** التي تمثل الفردية الشخصية، **وفكرة الاقتصاد الاشتراكي** التي تمثل الفردية الطبقية **وفكرة الوجودية** التي تمثل قمة شعورالإنسان الأوربي بالحرية.. **من هنا لا نستغرب حينما نرى الإنسان الأوربي في ظل هذه الأنظمة بدأ بتفاعل إيجابي مع المادة.. يستغل خيراتها ويكتشف أسرارها.**

ولم يكن غريبًا أيضًا أن نرى هذه النهضة العلمية في أوربا.. وحركة الإنسان الأوربي الدائبة في تفاعله مع وسطه المادي، لأن المنهج الذي يعمل ضمنه يمثل إطارتفكيره ويعبّر عن مزيج أخلاقيته. ومن هنا أيضًا لا نستغرب حينما نرى

الإنسان المسلم تسود ذهنه نظرات سلبية إلى الحياة المادية تتمثل في الزهد تارة وفي القناعة تارة أخرى، ومؤدية إلى العزلة والانطواء.

إن السلبية التي تسود ذهنية المسلم اليوم لم تنبع من الأخلاقية التي يعيشها، **بل نتجت بعد أن قُدّمت له الأرض بشكل لايتلائم والإطارالخلقي الذي يعيشه.**

الإنسان المسلم يحتاج إلى منهج تلبس الأرض فيه لباس السماء، ويتعامل مع محيطه المادي وفق مقياس الوجوب والاستحباب وعند ذاك سوف يندفع في حركة لا حدود لها، وسوف تتفجرالطاقات الخلاقة في نفسه، **وسوف يعمّر الأرض لا ماديًا فحسب بل يتغلغل إلى داخل النفس الإنسانية مجتثًا منها كل دوافع الحقد والظلم**، مكونًا المجتمع الذي تطمح كل الإنسانية اليوم إليه، و إن غفلت عنه، ذلكم هو المجتمع الإسلامي.

إن الارضية الإسلامية تتكون من عناصرثلاثة هي:

العقيدة والمفاهيم والعواطف

فالعقيدة تحدد نظرة الإنسان إلى الكون وتعطيه التفسير الكامل عن الوجود وعلى ضوء هذه العقيدة تنشأ عند الإنسان المسلم نظرات معينة إلى الأشياء وتحديدات ثابتة لها،

متمثلة في (المفاهيم) وهذه المفاهيم تبعث في نفس الإنسان أحاسيس ومشاعر معينة يظهر فعلها وعطاءوها في الخارج متمثلة في (العواطف) التي تكوّن عنصرًا مهمًا من عناصر التربة التي يعيش عليها النظام الاقتصادي الإسلامي. ومن هنا نعلم أن الاقتصاد الإسلامي لا يمكن أن يخطط له مركزيًا في ظروف كالظروف التي نعيشها اليوم من أجل تطبيقه كما يفكر المتحمسون للاقتصاد الإسلامي اليوم. **إن تطبيق الإقتصاد الإسلامي يبدأ بتهيئة التربة الصالحة له، يبدأ بتربية وفق عقيدة الإسلام وبث المفاهيم المنبثقة من هذه العقيدة كي تتفجر في نفس المسلم المعاصر الأحاسيس والمشاعر التي يستطيع أن يحتضن بها الاقتصاد الإسلامي ويتطلع إلى مجتمع أفضل هو المجتمع الإسلامي.**

الدافع الذاتي في إطار الدين

إن الدافع الذاتي نزعة متأصلة في النفس الإنسانية. والإنسان في كل تطلعاته وتصرفاته ينطلق من هذا الدافع، لذا كان سلوك الإنسان وأخلاقيته مظهرًا لهذا الدافع، ويتكيف الجانب الخلقي والجانب السلوكي للإنسان تبعًا لتوجيه هذا الدافع وتكييفه.

ويشكل الدافع الذاتي عقبة كبرى أمام أي تخطيط

اجتماعي، **بل يمكن القول بأن هذا الدافع هو مثار المشكلة الاجتماعية**، وبسبب اصطدام النزعة الذاتية بالمصلحة الاجتماعية فإنّ كل تخطيط يضمن مصالح الفرد الذاتية يصطدم بالمصلحة الاجتماعية وكل تخطيط يهدف مصلحة المجتمع يتعارض مع الدافع الذاتي للفرد.

ولما كانت هذه النزعة فطرية ومتأصلة فلا يمكن القضاء عليها أولا.. ومن ثم لا يستطيع أي جهاز اجتماعي كالجهاز الحكومي مثلاً أن يخطط للقضاء على هذه النزعة لأن هذا الجهاز جزء من المجتمع ويسري عليه مايسري على المجتمع من نزعات الدوافع الذاتية.

وبذا فسوف تبقى المشكلة معلقة والصراع محتدمًا مازالت المسألة في مستوى تخطيط أرضي ومنهج بشري.

وهنا يأتي دور الدين باعتباره العلاج الوحيد لما ينجم عن الفطرة من مشاكل وباعتبار أن الدين جاء ليكون متممًا للفطرة الإنسانية السليمة لتوجيه الإنسان إلى طريق كماله.

فالدين يقرّ بوجود الدافع الذاتي ولكنه يوجهه توجيهًا يرتفع عن مستوى الأرض ويربطه بالعالم الآخر.

فالإنسان المسلم بحكم تربيته يفكر بمجتمعه ويعطي من نفسه الكثير لصالح المجموع.. ويضحّي بماله ودمه أحيانًا في سبيل المصلحة الاجتماعية ، كل هذا يقدمه الإنسان المسلم منتظرًا العوض المضاعف في الدار الآخرة.

فالمصلحة الاجتماعية مضمونة، والمصلحة الفردية مضمونة أيضًا. ولا يمكن لمصلحة ذاتية للإنسان أن تكون إيجابية ومعطاءة في أي إطار كالإطار الذي يصوغه لها الدين وكالمنهج الذي يقدمه.

والقرآن الكريم في دفعه للإنسان المسلم يكوّن له هذه النظرة عن مصالحه وأرباحه فيقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٢٠-١٢١)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت:٤٦).

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٦-٨).

من هنا نعرف معنى دين الفطرة ومعنى القيمومة التي وصف الله تعالى بها رسالته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:٣٠)

التفسير الاقتصادي للسلوك والأفكار

راج في أدبيات اليسار تفسير كل مظاهر السلوك تفسيرًا اقتصاديًا وتصنيف الناس تصنيفًا طبقيًا والحكم على اتجاهات هذه الفئة وتلك الجماعة من خلال مستواهم المعاشي. السيد الصدر بيّن خطأ هذا الاتجاه بنقده العلمي لنظرية المادية التاريخية، كما استعرض بعض النماذج من الأهداف التي دعا إليها الإسلام والتي يجب أن تظهر في «عرف الماركسية» عند ظهور الطبقة البرجوازية وبعد انتشار الصناعة:

١ـ دعا الإسلام إلى المساواة ونبذ كل تفرقة بسبب اللون أو العنصر أو اللغة في «الناس سواسية كأسنان المشط» في العرف الإسلامي، و«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ولم يكن هذا بالمستوى النظري فقط و إنما استطاع أن يعكس هذه المفاهيم على الواقع الاجتماعي ويجسّدها في العلاقات الاجتماعية. علمًا بأن الماركسية تقول بأن عَلَم المساواة يجب أن ترفعه الطبقة البرجوازية التي تظهر في المجتمع الصناعي.

٢- **تحدّى الإسلام المادية التاريخية بدعوته إلى مجتمع عالمي يجمع الإنسانية كلّها على صعيد واحد.** فمن بين تلك الحياة العشائرية البدائية ظهرت هذه الفكرة ومن بين تلك

العقول الضيقة الأفق شعت هذه الدعوة، فأية وسيلة للانتاج طورت هذا التفكير وأية آلة غيّرت نظرة أقوام لا يدركون المجتمع القومي فأصبحوا في فترة قصيرة دعاة مجتمع عالمي؟!

٣- ومرة أخرى يتحدّى الإسلام منطق التاريخ الماركسي حين يقيم علاقات اقتصادية لا يمكن أن تقوم في حساب الاقتصاد الاشتراكي إلاّ بعد بلوغ المجتمع درجة من المرحلة الصناعية والآلية في الانتاج، فقلص الملكية الفردية وحدد مجالها وأعطاها مفاهيم وقيم معينة لتهذيبها ووضع ضمانات التوازن وعدالة التوزيع.. في الوقت الذي يقول منطق القرن الثامن عشر على لسان آرثر يونج «لا يجهلنّ سوى الأبله أن الطبقات الدنيا يجب أن تظل فقيرة، و إلاّ لن تكون مجتهدة» ويقول منطق القرن التاسع عشر على لسان مالثوس: «ليس للذي يولد في عالم تم امتلاكه حق في الغذاء إذا ما تعذر عليه الظفر بوسائل عيشه عن طريق عمله أو أهله، فهو طفيلي لا لزوم لوجوده، إذ ليس له على خوان الطبيعة مكان، والطبيعة تأمره بالذهاب ولا تتوانى في تنفيذ أوامرها» بينما يقول الإسلام معلنًا مبدأ الضمان الاجتماعي:

«من ترك ضياعًا فعليّ ضياعه، ومن ترك دَينًا فعليّ دينه».

ويعلن الإسلام بأن الطبيعة ليست هي سبب جوع الفقراء،

بل هو بسبب سوء التوزيع وفساد العلاقات فيقول الحديث: «**ماجاع فقير إلا بما مُتّع غني**» ومن كل هذا نستنتج بأن العلاقات الاقتصادية لم تقم على أساس تطوروسائل الإنتاج ولا على أي أساس مادي آخر، بل إنها قائمة على أسس فكرية وروحية تمتزجان فتكونان أخلاقية معينة، وهذه الأخلاقية هي التي تحدد العلاقات الاقتصادية وترسم طريق العدالة الاجتماعية.

مشكلة التوزيع في نظرالإسلام

إن لكل مذهب اقتصادي نظرة معينة في التوزيع تنسجم والإطارالعام للمذهب. فالشيوعية في معيارها للتوزيع تعتمد على قاعدة: **من كل وفقًا لطاقته ولكل وفقًا لحاجته.** والنظرة الاشتراكية تقول: **من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله.** والاشتراكية بعد الماركسية تعتقد بأن التوزيع يتحدد وفقًا لحالة الصراع الطبقي في المجتمع. فطبقة العبيد التي كانت تعيش تحت سياط السادة كان وضعها شيئًا سائغًا في ظروف تتطلب هذا النوع من الصراع بين السادة والعبيد.

ويقف الإسلام موقف المعارض لهذه النظرة، ويثبت **مسألة التوزيع على أساس خُلُقي.**

فالطبقة التي حُرمت من العمل بسبب ظروف جسمية

وفكرية يكون مصيرها الحرمان في منطق الاشتراكية بينما يقرر الإسلام بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذريات:١٩)، فهذه الفئة هي جزء من المجتمع الإنساني ولابد للمجتمع السعيد الذي يشيد دعائمه الإسلام أن يقلّص آلام الحرمان إلى أبعد حد ممكن. وعلى هذا الأساس الخلقي لا تحرم هذه الفئة من التكافل والضمان لمجرد أنها محتاجة لذلك. **ومن هنا نعرف أن المشكلة الاقتصادية في نظر الإسلام هي أخلاقية صرفة**، فالنظرة الماركسية تذهب إلى أن المشكلة الاقتصادية ناتجة عن التناقض بين شكل الإنتاج وعلاقات التوزيع، بينما يذهب الإسلام إلى أن المشكلة الاقتصادية نابعة من الإنسان نفسه حين يقررفي الآيات الكريمة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَلَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِبِأَمْرِهِ وَسَخَّرَلَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَلَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَدَائِبَيْنِ وَسَخَّرَلَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاتُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم: ٣٢ ـ ٣٤).

فهذا الكون الفسيح كله مسخر لمنفعة الإنسان ولمصلحته ولكنه ظلوم كفار كما تقرر الآية الكريمة.

فالظلم والكفران هما سبب المشكلة الاقتصادية،

فالظلم يتمثل في سوء التوزيع ويتمثل الكفران في إهمال الإنسان لاستثمار معطيات الطبيعة.

فالإنسان إذن هو سبب المشكلة، وهو القادر على حل المشكلة حينما يقيم علاقات مع هذا الكون تسمو على العلاقات المادية ويعيش الوسط الذي يحيطه وفق مقاييس فكرية وروحية.

أخلاقية الملكية في الاقتصاد الإسلامي

إن الملكية في الإسلام تُفسر على الطريقة المذهبية على أساس العمل وصلة العامل بنتاج عمله وهذا مالسنا بصدده، إذ نحن بصدد التفسير الخلقي للملكية الذي يحدده مفهوم الخلافة، واعتبار أن الإنسان خليفة ووكيل في هذه الأرض، هذا المفهوم الذي يؤطر الملكية بالإطار العام لصياغة الإسلام للفرد في تحديد مشاعره ونشاطه.

ولهذا التفسير الخُلُقي الذي يربي الإسلام أفراده وفقًا لمقاييسه معطياته الكبيرة وأهمها هي:

١ــ إن مفهوم الخلافة يقيّد الإنسان المسلم ويشده إلى تعليمات مَنْ وهبه هذه الخلافة، قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:٧).

وتنمو وفق هذا المفهوم الرقابة غير المنظورة في نفس

الإنسان المسلم لأنه يشعردائمًا بأنه مراقب في كل تصرفاته وأعماله فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٤).

٢- إن الإنسان المسلم على ضوء هذا المفهوم سوف يكون أمام رقابة أخرى هي رقابة المجتمع، فالخلافة في الأصل للجماعة، وعليها تقع مسؤولية حماية المال لأنها وكيلة عليه، فلا يجوزأن تسمح للسفهاء أن يتملكوا شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء:٥). فالأموال و إن كانت للأفراد بالملكية الخاصة ولكن القرآن عبرعنها بكلمة: ﴿.. أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ...﴾ (النساء:٥) إشارة إلى المسؤولية الملقاة على عاتق الجماعة باعتبارها هي التي تتحمّل أعباء الخلافة.

٣- وعلى ضوء مفهوم الخلافة فقد جُرّدت الملكية من الامتيازات المعنوية التي رافقتها واقترنت بوجودها، فليس هناك أي امتيازمعنوي للغني على الفقير، ولا يجوزاقتران الملكية بأي نوع من القيمة الاجتماعية في العلاقات المتبادلة، فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام «من لقي فقيرًا مسلمًا فسلّم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله عزوجل يوم القيامة وهو عليه غضبان».

ونـدّد القرآن الكريم بهذه المقاييس التي تعتبرالثروة هي

التـي تطبـع نوعيـة العلاقـات والمعـاملات الاجتماعيـة فيقـول تعـالى: ﴿عَـبَسَ وَتَـوَلَّى، أَنْ جَـاءَهُ الْأَعْمَـى، وَمَـا يُـدْرِيكَ لَعَلَّـهُ يَزَّكَّـى، أَوْ يَـذَّكَّرُفَتَنْفَعَـهُ الـذِّكْرَى، أَمَّـا مَـنِ اسْـتَغْنَى، فَأَنْـتَ لَـهُ تَصَـدَّى، وَمَـا عَلَيْـكَ أَلَّا يَزَّكَّـى ،وَأَمَّـا مَـنْ جَـاءَكَ يَسْـعَى، وَهُـوَ يَخْشَـى، فَأَنْـتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس:١ - ١٠).

وهكـذا تـذوب كـل هـذه الامتيـازات علـى ضـوء اعتبـارأن الملكية خلافة لها مسؤوليتها ووظيفتها، لاحقًا ذاتيًا.

٤- تتحـول الملكيـة وفـق هـذا المفهـوم مـن اعتبارهـا غايـة إلـى كونهـا مجـرد وسـيلة، إذ إن الإنسـان الـذي انـدمج كيانـه روحيًـا ونفسـيًا مـع الإسـلام ينظـرإلـى الملكيـة بوصـفها وسـيلة تحقـق الهـدف مـن الخلافـة و إشـباع الحاجـات الإنسـانية المتنوعـة. فيقـرر الرسـول الكـريم(ص) «لـيس لـك مـن مالـك الا مـا أكلـت فأفنيـت ولبسـت فأبليـت وتصـدقت فأبقيـت» والمـال بهـذا المنظـار لا يكون تجميعًا وتكديسًا شَرِهًا لا يرتوي ولا يشبع.

تلـك هـي الصـياغة الروحيـة والخلقيـة للملكيـة فـي الإسـلام التـي تكمـل الصـياغة المذهبيـة للملكيـة فتشـكلان معًـا علاقـة الإنسان بما يملك، علاقة سامية ذات نتاج ثرّ إيجابي معطاء.

استنتاج

التنميـة الشـاملة فـي المجتمـع هـي التـي تحقّـق كرامـة الإنسـان وعزّتـه وتتجـه بـه إلـى الكمـال فـي الجوانـب الماديـة

والمعنويّة. وهذا مالا يتحقق في إطارالانظمة الماديّة التي تجعل من المصالح الاقتصادية حافزًا أساسيًا للتنمية. فهذا الحافزقد يؤدّي إلى تسجيل انتصارمادي في حقل استثمارمواهب الطبيعة، لكنه يقترن بتكالب محموم يصادر كل قيم الإنسانية.

والمنهج الإسلامي في التنمية الذي يقوم على أساس تزكية الإنسان هوالذي يستطيع أن يحقق طموح البشرية في حياة حرّة كريمة. وبالمناسبة فان التزكية من «زكا» أي «نما» فالتزكية هي التنمية الشاملة بالمعنى الإسلامي، وتبدأ من تغيير المحتوى الداخلي للإنسان لتحل كل التناقضات بينه وبين الطبيعة وبينه وبين أخيه الإنسان، وتخلق تفاعلًاإيجابيًا بين الكائن البشري والأرض وفق مفاهيم الاستخلاف.

الإنسان المسلم يحتاج إلى منهج تلبس الأرض فيه لباس السماء، ويتعامل مع محيطه المادي وفق مقياس الوجوب والاستحباب وعند ذاك سوف يندفع في حركة لا حدود لها، وسوف تتفجر الطاقات الخلاقة في نفسه، وسوف يعمّر الأرض لا ماديًا فحسب بل يتغلغل إلى داخل النفس الإنسانية مجتثًا منها كل دوافع الحقد والظلم.

الشهيد محمد باقرالصدر

موقف الشهيد الصدر
من ظاهرة تخلف العالم الإسلامي

تناول المهتمون بقضايا العالم الإسلامي مسألة التطورالاقتصادي والتنمية الاقتصادية من وجهة النظرالمذهبية، وحاولوا أن يستكشفوا الأسباب الحضارية للتخلف القائم بين المسلمين . ومنهم الشهيد محمد باقرالصدر

يرى كثيرمن الباحثين الغربيين أن هذا التخلف الاقتصادي يعود إلى روح التوكل واحتقارالمادة والاستسلام للقدروالاعتماد على الفرص ، والعجزعن الخلق والإبداع الموجودة بين المسلمين[1].

يؤيد هذه النظرة الوضع القائم في العالم الإسلامي بكل ما يحيطه من تخلّف في جميع مناحي الحياة، وما يدبّ فيه من ضعف وهوان، وما تعجّ به الثقافة الشعبية المعاصرة من روح كسل وبَطَرولا مبالاة.

١- الإسلام والتنمية الاقتصادية، جاك اوستروي، ترجمة الدكتورنبيل صبحي الطويل، ومقدمة الاستاذ محمد المبارك.

ويقف الباحثون المسلمون مدافعين عن الإسلام تجاه هذه الدعوى بأساليب مختلفة أهمها:

١.أسلوب الاستدلال بالنصوص الدينية.

٢- أسلوب استعراض التأريخ الإسلامي.

٣- صياغة النظرية الإسلامية.

٤- مهاجمة الحضارة الغربية.

٥- محاولة استكشاف الأسباب الحقيقية للتخلف.

١.أسلوب الاستدلال بالنصوص الدينية:

لا يخفى على باحث في الإسلام أن المسلمين ينظرون إلى النصوص الدينية في القرآن والسنة على أنها (**منهج**) لتنظيم أمورحياتهم في كل المجالات الخاصة والاجتماعية، والإنسان المسلم يرى نفسه مسؤولًا أمام الله في تطبيق هذه النصوص وتنفيذها بدقة. ومن هنا فان لهذه النصوص دورًا مهمًا في صياغة حركة الإنسان وروابطه بالمجتمع والطبيعة. ومن حق الباحث أن يعود إليها ليرى كيف وجّه الإسلام أبناءه في حقل التنمية الاقتصادية.

في هذه النصوص نرى تأكيدًا على أن مافي الأرض من نِعَم مادية إنما هي من عطاء الله للإنسان، فهي كلها إذن خيرات مصدرها الخيرالمطلق سبحانه، والإنسان المسلم بطبيعة تربيته يطلب الخير.

قال سبحانه: ﴿.. وأمددناكم بأموال وبنين ... ﴾ (الاسراء/ ٦).

﴿ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارًا﴾(نوح/ ١٢).

وقال: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا﴾(الاسراء/ ٦٦).

﴿... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ...﴾ (الحديد/ ٢٥).

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ...﴾(الاعراف/ ١٠).

﴿والأرض وضعها للأنام﴾ (الرحمن/ ١٠).

كما نرى في نصوص الكتاب العزيز حثًّا على ابتغاء فضل الله والحركة من أجل استثمار مواهب الطبيعة:

﴿فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ...﴾ (الجمعة/ ١٠).

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلًا من ربكم ...﴾ (الاسراء/ ١٢).

وثمة نصوص تربط بين «الخبز» وهو رمز الوفرة الاقتصادية والاكتفاء الذاتي في لغة هذه النصوص وبين حياة الدين واستمرار مسيرة الإنسان الروحية نحو الله. فعن النبي(ص):

«اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرّق بيننا وبينه»[1]، وعنه(ص): «فلولا الخبز ما صلينا..»[2] وعنه: «فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا»[3].

والنصوص الدينية ـ من جهة أخرى ـ تحثّ على العمل، وتجعل الحركة في طلب الرزق عبادة والاهمال والكسل مفسدة وعبثًا، قال سبحانه: ﴿... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾ (هود: ٦١).

وعن رسول الله(ص) أنه قبّل يومًا يَد عامل وقال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة. ومن أكَلَ من كَدِّ يده مرّ على الصراط كالبرق الخاطف. ومن أكل من كدّ يده نظر الله إليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدًا. ومن أكل من كدّ يده حلالاً فتح له أبواب الجنة يدخلها من أيها شاء»[4]، وفي الحديث الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة الاّ كانت له به صدقة»[5].

وتذهب النصوص إلى إعطاء العمل الاقتصادي نفسه قيمة

١- الكافي ٥: ٧٣ و ٦:٢٨٧.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- بحار الانوار ١٠٣: ٩ .

٥- جامع أحاديث الشيعة ١٨: ٤٣١.

سامية بغض النظر عن معطياته المادية. ففي الحديث: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم الفسيلة فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها»[1].

ويتحدث الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) للمفضّل بحديث يبيّن فيه أن سنة الحياة تقتضي الحركة من أجل الإنماء الاقتصادي و إلاّ فإن المجتمع يسقط في فراغ يتبعه عبث وفساد فيقول: «واعلم يا مفضل .. وجعل (الله) الخبزَ متعذرًا لا يُنال إلاّ بالحيلة والحركة، ليكون للإنسان في ذلك شغل يكفّه عمّا يخرجه إليه الفراغ من الأَشَرِ والعبث.»[2].

وتقرنُ بعض النصوص الفقرَ بالكفر، وهذا يعني أن الأمة الفقيرة، أي الأمة التي تفتقد الحركة لاستثمار مواهب الطبيعة، هي أمة لا تصلح أن تكون مؤمنة. فالايمان يقتضي الحركة على طريق الغني المطلق سبحانه، فعن النبي(ص): «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[3].

وروى الصادق(ع) عن النبي(ص) أنه نادى الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، فصعد النبي(ص) المنبر، فنعى إليهم نفسه

١- المصدر نفسه.

٢- البحار ٨٧:٣ _ توحيد المفضل: ٨٧.

٣- الخصال ١: ١٢.

فقال: «أذكّر الله الوالي من بعدي على أمتي.. ولم يَقرهم فيُكفرهم»[1].

والنهي عن الكسل والتكاسل في طريق طلب المعيشة وردت فيه نصوص كثيرة، وكلها تدعو إلى حركة دائبة على طريق تحسين الوضع الاقتصادي الفردي والاجتماعي. من ذلك: قول الإمام علي(ع): «إن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر»[2].

فالكسل حالة نفسية تُضعف همّة الإنسان عن طلب مبتغاه، ويقترن بها العجز عن بلوغ الغايات في الواقع العملي. ونتيجة كل ذلك الفقر، الفقر في كل ما يحتاجه الفرد وتحتاجه الجماعة لمواصلة مسيرة الحياة بعزّة وكرامة.

وعن الإمام الصادق(ع) قال: «لا تكسلوا في طلب معايشكم فإن آباءنا قد كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[3].

والنصوص في كل هذه المجالات كثيرة جدًا. وأختتمُ هذا الاستعراضَ بنص رائع عن أمير المؤمنين علي(ع) فيما رواه الصادق قال: «من وجد ماءً وترابًا ثم افتقر فأبعده الله»[4]. أي

١- الكافي ١: ٤٠٦ ، يُقرهم: يُثقل عليهم بالمطالبات والديون.

٢- الكافي ٥: ٨٦.

٣- من لا يحضره الفقيه ٣: ٩٥، باب ٥٨ في المعايش والمكاسب.. الحديث ١١.

٤- الوسائل: ٢٤ .

إن من طبيعة الإنسان المسلم الذي يسيرفي طريق الكامل المطلق سبحانه أن يستثمرمواهب الطبيعة ويتفاعل معها. فالماء والتراب رمزان لهذه المواهب الطبيعية. ولا يمكن أن يتوفر«الماء» و«التراب» و«الإيمان» ثم يفتقرالإنسان. واذا توفر العنصران الأولان ثم افتقرَفلابد أن يكون الخلل في العنصر الثالث.

هذه النصوص أسهمت بدون شك على مرالعصورفي صياغة ذهن الإنسان المسلم، وجعلته يتعامل مع الطبيعة تعاملاً فاعلًا وفق معاييرالإسلام، وكانت وراء ما شهدته الحضارة الإسلامية من ازدهارفي عصورها الذهبية.

و إذ نحن في صدد استعراض النصوص لابدّ أن نشيرإلى بعض الروايات التي تنظرإلى التعامل مع المادة والحياة نظرة سلبية، وتحثّ الإنسان المسلم على ترك حبّ الدنيا نظيرقول الرسول(ص): «من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته»[1].

وعن الصادق(ع) : «رأس كل خطيئة حبّ الدنيا»[2].

وعن الصادق(ع) أيضًا: «أبعد ما يكون العبد من الله عزّوجل إذا لم يهمّه الاّ بطنه وفرجه»[3].

١- ميزان الحكمة ٢: ٣٢٥.

٢- ميزان الحكمة ٣: ٢٩٤.

٣- وسائل الشيعة ١١: ٣١٨، باب ٦٤ في كراهة الحرص على الدنيا.

وعن أمير المؤمنين علي(ع): «إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا»[1].

هذه النصوص يمكن أن نفهمها في ضوء النصوص السابقة على أنها دعوة للكف عن الشَرَه والتكالب والصراع في التعامل مع مواهب الطبيعة، ودعوةٌ إلى التعامل مع المادة وفق أخلاقيات الإسلام الإنسانية، لا وفق ما تفرزه طبيعة هذا التعامل من استئثاروشحّ وحرص واكتناز. إنها دعوة لأن يكون الإنسان ـ وهو يتعامل مع الحياة ـ سيّد هذا الكون، والمتحكّم في المادة على طريق استثمارها.

٢- أسلوب استعراض التأريخ الإسلامي:

سجّل التاريخ الإسلامي، في قرونه الاولى ـ بشكل خاص ـ صورًا رائعة من تفاعل الإنسان المسلم مع مواهب الطبيعة، ففجّر الأرض واستثمرها وساحَ فيها واكتشف معالمها، وتطلّع إلى السماء، وتعرّف على مواقع نجومها، وركّب المواد وشخّص خصائصها، وغارفي داخل جسم الإنسان وفهم طبيعة فسلجة أعضائه، وتعرّف على دائه ودوائه، ومارس عمارة المدن والطرق والجسوروالسدود فأبدع فيها، ولم يمض على عصر صدرالإسلام زمن طويل حتى شهد العالم

١- بحارالانوار٧٣: ٥٠.

الإسلامي حضارة يشهد على عظمتها علماء الغرب ويقفون أمامها وقفة احترام و إجلال.

ومن المستشرقين الذين ألّفوا في هذا المجال جورج سارطون في كتابه: *الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط*[1]، وكتابه: *تاريخ العلم القديم في العصر الذهبي*[2]، وجويدي في كتابه: *علم الشرق وتاريخ العمران*[3]، والدويميلي في كتابه: *العلم عند العرب*[4]، وكارلونالينو في كتابه: *علم الفلك _ تاريخه عند العرب في القرون الوسطى*.

وممن كتب في هذا المجال أيضًا: قدري حافظ طوقان في كتبه: *العلوم عند العرب*، و*تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك*، و*التفكير العلمي عند العرب*، و*أثر العرب في تقدم الفلك*. وجرجي زيدان في كتابه: *تاريخ التمدن الإسلامي*، ومحمد كردعلي في كتابه: *الإسلام والحضارة الغربية*، وغيرهم كثير.

وهنا أن أقف عند ملاحظتين على هذا الأسلوب:

الاولى: أنها ركزت – سواء من قبل المستشرقين أو من قبل أكثر العرب – على دور «العرب» في بناء الحضارة الإسلامية،

١- نقله إلى العربية عمر فرّوخ، بيروت، ١٩٦٤م.

٢- ترجمة إبراهيم مدكور وغيره، القاهرة، ١٩٥٧ _١٩٦١م.

٣- ترجمة محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٩٣٠.

٤- ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى، القاهرة، ١٩٦٢م.

لا «المسلمين»، وهذا التركيز لا أظنه عفويًا، كما لا أحسن الظن فيه فأقول: إن المقصود بالعرب كل من تكلم العربية من المسلمين، فالنزعة القومية واضحة في هذه الابحاث، وأعتقد أنها جاءت ضمن الموجة التي خطط لها الغرب وسار ضمنها العالم الإسلامي في جعل الأطروحة القومية مكان الطرح الإسلامي، ومن ثم جعل الدويلات التي نشأت بعد اتفاقيات التقسيم تتغنى بأمجادها وتسكر على أنغام ذكريات ماضيها من دون أن تتقدم خطوة في مضمار الحضارة، ثم إن سلخ هذه الحضارة عن الإطار الإسلامي يبعد أذهان المسلمين عن الطاقة المحركة الهائلة التي أوجدت هذه الحضارة في الماضي ويمكن أن توجدها في المستقبل.

الثانية: أن الحديث عن أمجاد الماضي يجب أن يكون ضمن خطة شاملة تستهدف دفع المسيرة الاجتماعية نحو الحركة، عندئذ سيكون مثل هذا الحديث قادرًا على منح الفرد المتحرك ثقةً بنفسه وقدرةً على مواصلة الطريق من دون كلل أو ملل. أما إذا لم يكن ضمن هذه الخطة فإنه يتحول إلى انتفاخ وَرَمي يبعد الأذهان عن التفكير في تخلّف الواقع الراهن وعلاج هذا التخلف. وتحضرني هنا ملاحظة للمرحوم عباس محمود العقاد على الحروب الصليبية يذكر فيها أن الحروب الصليبية أضرت العالم الإسلامي من جهتين: الاولى:

أنها أنهكت جسم العالم الإسلامي واستنزفت طاقاته وقواه المادية والبشرية، والثانية: أنها بسبب ما حققته من انتصارات عسكرية أورثت الأمة الإسلامية إفراطًا في الثقة برجحانها، و إفراطًا في سوء الظن بأعدائها، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم إلى عدة قرون، قامت أوروبا بعدها مقام القيادة وتخلّف الشرق، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات، والاعتزاز بالرجحان في أمثال هذه الظروف»[1].

والعبارة الأخيرة للعقاد صادقة في مجال التركيز على أمجاد الماضي، حين لا ترافقه خطة نهوض وتحريك ودفع نحو الهدف المنشود.

٣- صياغة النظرية الإسلاميّة

لكل مدرسة فكرية نظريتها الخاصة للتعامل مع الطبيعة، وهذه النظرية تشكل الأساس الذي يتحرك عليه الإنسان والمجموعة البشرية لبناء الحضارة.

وصاغ المفكرون الإسلاميون نظرية «الاستخلاف» لتعبّر في جانب منها عن الإطار الإسلامي لتعامل الإنسان مع الطبيعة. «الإنسان بوجه عام مستخلف من الله في هذه الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها، سلّطه الله عليها فأعطاه

١- الإسلام في القرن العشرين: ٤٦ _ ٤٩، ط ٢،

القدرة على تسخيرها وتسخيرسائرالكون لمنافعه بما وهبه من الحواس والعقل وسائرالصفات الجسمية والعقلية التي تجعله أهلًا لذلك على تفاوت بين أبناء البشر»[1].

الآيات الكريمة التي تستند إليها هذه النظرية كثيرة منها:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾(البقرة/ ٣٠).

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم...﴾ (الانعام/ ١٦٥).

﴿... وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...﴾(الحديد/٧).

ووفق هذه النظرية يتحمل الإنسان المسلم مسؤولية القيام بأعباء الخلافة في الأرض، مسؤولية الخلق والإبداع والتصرف في قوانين الطبيعة واستخدامها بقدرما وهبه الله من قدرة، ولا يمكن لإنسان يعيش هذا المفهوم أن يظل خاملًا متواكلًا غير متفاعل مع قوانين الكون والطبيعة، وغيرَعامل على تسخيرها على طريق تحقيق مسؤوليات الخلافة.

يقول السيد محمد باقرالصدرعن هذا المفهوم: «... ولا أعرف مفهومًا أغنى من مفهوم الخلافة لله في التأكيد على

١- نظام الإسلام، الاقتصاد، محمد المبارك: ٢١.

قدرة الإنسان وطاقاته التي تجعل منه خليفة السيد المطلق في الكون، كما لا أعرف مفهومًا أبعد من مفهوم الخلافة لله عن الاستسلام للقدر والظروف لأن الخلافة تستبطن معنى المسؤولية تجاه ما يُستخلف عليه، ولا مسؤولية بدون حرية وشعور بالاختيار والتمكن من التحكم في الظروف، والّا فأي استخلاف هذا إذا كان الإنسان مقيدًا أو مسيّرًا..؟!»[1].

٤- مهاجمة الحضارة الغربيّة:

حين صحا العالم الإسلامي في العصر الحديث من سباته راح يفكر في سبيل لاستعادة وجوده، لكن تفكيره كان ممزوجًا بآثار النوم الطويل وبروح الهزيمة التي مُني بها على يد المستعمر. وما كانت هزيمة العالم الإسلامي اقتصادية وعسكرية فحسب بل ونفسية أيضًا. ومن هنا راح ـ مدفوعًا بروح الهزيمة ـ يستجدي المناهج الغربية ليجد فيها البلسم لجراحه. وبذلك عمّق روح الهزيمة في حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وواجه الفشل الذريع في تطبيق الوصفات الغربية وخاصة في مجال التنمية الاقتصادية. وأمام هذا الانبهار بروح الغرب اتخذ بعض المفكرين الإسلاميين أسلوب مهاجمة الحضارة الغربية، وأرادوا بهجومهم هذا أن

١- اقتصادنا، مقدمة الطبعة الثانية: ٢٤.

يخاطبوا الإنسان المسلم قائلين له: إن العالم بأجمعه يعيش اليوم حالة تخلف حضاري، لا العالم الإسلامي وَحده. وهذا اللون من الخطاب محاولة لإبعاد المسلمين عن روح الإحساس بالهزيمة ولدفعهم نحو التأصيل الحضاري في عملية التنمية الاقتصادية.

يقول سيد قطب: «إن مقياس الرقي الحضاري في نظر الإسلام هو حين يقوم (الإنسان) بالخلافة عن (الله) في أرضه على وجهها الصحيح: بأن يخلصَ عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده، ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يحكّم شريعة الله وحدها في حياته وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش القيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدّعاة، ثم بأن يتعرّف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها، وجعل تلك النواميس أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فضِّ هذه الاختام بالقدر الذي يلزمه له في الخلافة.. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشروطه، ويصبح يفجّر ينابيع الرزق ويصنّع المادة الخامة، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها

الإنسان في تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنّع هذا (ربانيًا) يقوم بالخلافة عن الله ـ على هذا النحو ـ عبادة لله... يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة»[1].

وهذا يعني أن الغرب اليوم متخلف حضاريًا رغم تطوره الصناعي والاقتصادي.

ومن المفكرين من يرى أن الحضارة الغربية تعاني أزمة أخلاقية، وهذه الأزمة ناتجة عن افتقادها المقاييس الإنسانية في التوجه، ولذلك فهي غيرقادرة على حل مشكلة البشرية.

يقول مالك بن نبي: «لاشك أن الآلات الحاسبة التي استخدمها الإنسان الحديث لتكون مقياس حضارته عجيبة رائعة، شريطة أن لا تندس حبّة من الرمل بين أجزاء المحرك... إذ إن بعض حبات الرمل التي تسبب خطأ في الحساب قد تؤدي إلى ملايين القتلى وما لاحدّ له من الهدم والتخريب.. واحتكاك طفيف بين أجزاء الماكنة الحسابية كشف عن أزمة السرطان الأخلاقي الذي يلتهم الحضارة، ودلل بشكل لا يقبل الشك أن النهضة الفنية وحدها عاجزة برسومها ومعادلاتها عن حلّ المشكلة الإنسانية»[2].

١- معالم في الطريق، سيد قطب: ١١٤، ١١٥.

٢- وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي.

ونـرى فـي كتـب الإسـلاميين اسـتدلالات كثيـرة علـى لسـان المفكـرين الأوربيـين أنفسـهم بشـأن أزمـة الحضـارة الغربيـة، كمـا فعـل سـيد قطـب فـي كتابـه: *المسـتقبل لهـذا الـدين*، حيـث نقـل كثيـرًا عـن الـدكتورالكسـيس كاريـل فـي كتابـه *الإنسـان ذلـك المجهـول* وعـن دالـس فـي كتابـه *حـرب أم سلام*[1].

٥- محاولة استكشاف أسباب التخلّف:

حـين يعـالج البـاحثون الإسـلاميون أسـباب مشـكلة التخلـف الاقتصـادي فـي العـالم الإسـلامي، يرفضـون أن تكـون قلـة الثـروات أو الامكانـات البشـرية مـن هـذه الأسـباب، فأندونوسـيا ـ علـى سـبيل المثـال ـ تملـك مـن هـذه الثـروات مـالا تمتلكـه اليابـان، ولكـن أيـن أندونوسـيا مـن اليابـان فـي مجـال التنميـة الاقتصادية؟!

ويجمـع البـاحثون الإسـلاميون علـى أن سـبب التخلـف الاقتصـادي فـي العـالم الإسـلامي وفشـل خطـط التنميـة فـي الـبلاد الإسـلامية يعـود إلـى غيـاب الإسـلام عـن سـاحة الحيـاة فـي هـذه الـبلاد. ولا يمكـن للإنسـان المسـلم أن يسـجل نجاحًـا فـي حقـل ممارسـة نشـاطات التنميـة الاقتصـادية الاّ فـي ظـل النظـام

١- المستقبل لهذا الدين، فصل صيحات الخطر: ٧٠ ـ ٩٤.

الإسلامي، وفي ظل توجّه حضاري إسلامي.

يقول الشهيد الصدر: «حين نريد أن نختار منهجًا أو إطارًا عامًا للتنمية الاقتصادية داخل العالم الإسلامي يجب أن نأخذ هذه الحقيقة أساسًا ونفتش في ضوئها عن مركب حضاري قادر على تحريك الأمة وتعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف، ولابدّ حينئذ أن نُدخل في هذا الحساب مشاعر الأمة ونفسيتها وتأريخها وتعقيداتها المختلفة»[1].

ويقصد بالحقيقة المذكورة أعلاه: «أن حاجة التنمية الاقتصادية إلى منهج اقتصادي ليست مجرد حاجة إلى إطار من أطر التنظيم الاجتماعي تتبناه الدولة فحسب .. ولا يمكن للتنمية الاقتصادية والمعركة ضد التخلف أن تؤدي دورها المطلوب إلاّ إذا اكتسبت إطارًا يستطيع أن يدمج الأمة ضمنه وقامت على أساس يتفاعل معها. فحركة الأمة كلها شرط أساسي لإنجاح أية تنمية اقتصادية وأية معركة شاملة ضد التخلف، لأن حركتها تعبير عن نموّها ونموّ إرادتها وانطلاق مواهبها الداخلية»[2].

ثم يتحدث السيد الصدر عن الأخلاقية الماثلة في وجدان الأمة الإسلامية، ويرى أن هذه الأخلاقية «يمكن الاستفادة

١- اقتصادنا: ١٣، ١٤.

٢- المصدر نفسه: ١٣.

منها في المنهجة للاقتصاد داخل العالم الإسلامي، ووضعه في إطاريواكب تلك الأخلاقية لكي تصبح قوة دفع وتحريك كما كانت أخلاقية مناهج الاقتصاد الأوربي الحديث عاملًا كبيرًا في إنجاح تلك المناهج لما بينها من انسجام».

فسلبيات التنمية الاقتصادية تعود ـ إذن ـ إلى انفصال المناهج الاقتصادية المطبقة حديثًا في العالم الإسلامي عن المزيج الحضاري بكل مافيه من عقيدة وتأريخ للأمة. وهذه الظواهرالمشهودة من الزهد أوالقناعة أوالكسل تعود إلى انفصال الأرض عن السماء. «أما إذا ألبست الأرض إطار السماء، وأعطي العملُ مع الطبيعة صفةَ الواجب ومفهومَ العبادة فسوف تتحول تلك النظرة الغيبية لدى الإنسان المسلم إلى طاقة محركة وقوة دفع نحوالمساهمة بأكبرقدرممكن في رفع المستوى الاقتصادي»[1].

ومن المفكرين من يرى أن «مسألة المسائل» التي تحول دون التقدم والتنمية في العالم الإسلامي هي السلطة السياسية[2]. ويرى أن هذه السلطة السياسية تفرزسلوكيات خاصة تحول دون تحرك المجتمع نحوالهدف المنشود ونحو التضحية من أجل هذا الهدف.

١- المصدرنفسه.

٢- الإسلام المعاصر، رضوان السيد: ٦٢ .

و إنما تشكل السلطة السياسية عقبة في طريق حركة المجتمع بسبب الغربة بين السلطة والمجتمع، وهذه الغربة «تدفع النُخَب المسيطرة إلى السلوك إزاء المجتمع سلوك الخائف الباطش. إنها ترشو بعض الفئات التي تعتقد تأثيرها في مسألة بقائها في السلطة، وتستعين بها على المجتمع، وتعمل على نهب ثروات مجتمعاتها» وبسبب هذه الغربة أيضًا «فان الحاكمين في دار الإسلام يرتكبون أخطاء كثيرة في مجال فهم تاريخ مجتمعهم ورغباته وتطلعاته المستقبلية»[1].

هذه السلطة تشكل ـ إذن ـ عقبة حضارية في المجتمع الإسلامي، ولولاها لتحرك المجتمع الإسلامي نحو أهدافه المنشودة مدافعًا عن شخصيته وكرامته وعزّته. **يذكر رضوان السيّد مثالين شاهدهما بنفسه عن موقفين من مواقف الشعب المصري تجاه التحديات الاقتصادية اتخذ منهما الشعب المصري المسلم نهجين متباينين: «الاول: عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ عندما شاع في الشارع المصري أن الولايات المتحدة قطعت هبات القمح عن البلاد. والثاني: عام ١٩٧٧ عندما حدثت الاضطرابات الاجتماعية التي عُرفت بثورة الخبز: تلقّت جماهير الشارع المصري مخاوف و إشاعات نقص الخبز والمجاعة في المناسبة الأولى بغضب وحماس**

١- المصدر نفسه.

واستعداد للتضحية، وثارت وخرّبت في المناسبة الثانية لرفعٍ غيرِ كبيرلأسعارالمواد الغذائية».

ثم يعلل الكاتب سبب التمايزبين هذين الموقفين فيقول: **«كانت الجماهيرفي المناسبة الأولى مقتنعة (بحق أو بغيرحق) أن الاجراءات الأمريكية موجهة ضدها هي، وضد جهود التنمية والمستقبل في البلاد. بينما اعتقدت في المناسبة الثانية أنه ليس هناك مسوغ للتضحية مهما صغرت»**[1]. **«إن مجتمعاتنا التي لم تعتد الرفاه أو الدلال، مستعدة للتضحية بكل مرتخص وغال إذا اقتنعت أن ذلك يدفع العدوّ الخارجي، أو يؤمّن المستقبل لأطفالها وأجيالها القادمة. لكن كيف نطلب إلى هذه الفئات الاجتماعية أن تضحي بالقليل والكثيرمن أجل لا شيء أو من أجل استقرارالحاكمين واستمرارهم فقط»؟!**

ويرى الكاتب أن السلطة السياسية في العالم الإسلامي تحول دون اندماج الأمة بإطارها الحضاري، ومن ثم تحول دون التحرك نحو المستقبل: «إن مجتمعاتنا الإسلامية هي مجتمعات تاريخية من الطرازالأول، فما تزال أمجاد الماضي ومسؤولياته العالمية تتراءى في أعماقها وتهبها قوة على البقاء

١- المصدرنفسه: ٦٣.

وآمـالًا عراضًـا فـي المسـتقبل، **وهـذا إن اقتنعـت أن السـلطة سلطتها هي والمستقبل مستقبلها هي»**[1].

«المثل الأعلى» والتنمية الاقتصادية:

لاحظنا فيما سبق تأكيدًا على ضرورة «الحركة» حركة الأمة من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية، وهذه الحركة هي أساس الحضارة. ويمكننا أن نقول من دون أن نخشى زللًا: إن الأمة المتحضرة هي الأمة المتحركة. وكل الحضارات نشأت على أثر حركة الأمم، ولذلك نشأت الحضارات الكبرى عقب الهجرات الشرية. وشاءت سنة الكون أن تكون اللبنة الأولى لإقامة الحضارة الإسلامية أرضَ المدينة المنورة، أرض الهجرة.

والإسلام إنما شيّد حضارته الكبرى حينما حرّر المجموعة المسلمة مما يكبّلها ويقيّدها ويصدّها عن الحركة. وقال لها: ﴿وجاهِدوا في الله حقّ جهاده...﴾(الحج/ ٧٨)، ﴿.. فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا﴾(النساء/ ٧١)، ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى...﴾(سبأ/ ٤٦). ﴿قل سيروا في الأرض..﴾ (الانعام/ ١١، النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٩، الروم: ٤٢)، ﴿فسيحوا في الأرض..﴾

١- نفس المصدر.

(التوبة/ ٢) ، ﴿.. فاستبقوا الخيرات ...﴾ (البقرة/ ١٤٨، المائدة: ٤٨) ، ﴿... قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها...﴾(النساء/ ٩٧) ، ﴿... ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض ....﴾(البقرة/ ٢٥١).

هذا الدفع العظيم للحركة نحو «مثل أعلى» وضعه الإسلام نُصب أعين الجماعة المسلمة هو الذي خلق الحضارة الجديدة.

وهنا أرى من اللازم أن أستعرض بايجاز نظرية القرآن الكريم في حركة المجتمع ـ كما استنبطها الشهيد الصدر رضوان الله عليه ـ وهي نظرية نشوء الحضارات بتعبير آخر، لنرى أنّ الأمة المسلمة هي الأمة المتحركة على طريق لانهائي للتطور التكاملي، يكون فيها مجال التطور والإبداع والنمو قائمًا أبدًا ودائمًا[1].

وفق هذه النظرية تنقسم المجتمعات البشرية إلى ثلاثة أصناف:

١ـ صنف فقد الرؤية المستقبلية وأصبحت حياته تكرارية لا تقدم فيها ولا تطور ولا إبداع.

٢- مجتمع وضع نصب عينيه طموحًا مستقبليًا محدودًا.

٣- مجتمع اتجه على طريق تكاملي لا نهائي.

١- مقدمات في التفسير الموضوعي، ط دار التوجيه الإسلامي، ١٥٣.

والاختلاف بين هذه المجتمعات يعود إلى «المثل الأعلى» الذي تتبناه، أو إلى «الإله» الذي تعبده بالتعبير القرآني.

المجتمع الأول: مثله الأعلى مستمد من واقع ما تعيشه الجماعة البشرية من ظروف وملابسات، ويتحول هذا الواقع من أمر محدود إلى هدف مطلق لا تتصور الجماعة شيئًا وراءه. وفي هذه الحالة تكون حركة التاريخ حركة تكرارية، ولا يكون المستقبل إلا تكرارًا للواقع والماضي.

وتعود هذه الحالة في المجتمع إلى سببين:

الأول: سبب نفسي، هو الألفة والعادة والخمول والضياع. والقرآن الكريم يعرض صورًا كثيرة من وقوف هذه المجتمعات بوجه دعوات الأنبياء بسبب هذه الألفة والعادة والجمود على الواقع: ﴿.. قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولَوَ كان آباؤهم لا يعقلون ...﴾(البقرة/ ١٧٠) ، ﴿... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ (هود/ ٦٢).

والسبب الثاني: يعود إلى التسلط الفرعوني. والفراعنة يجدون في كلّ تطلع مستقبلي زعزعة لوجودهم ومراكزهم، ولذلك يريدون أن يوَجّهوا كلّ الناس نحو عبادتهم، ويحصروا رؤية الناس في رؤيتهم، يقول سبحانه: ﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ...﴾(القصص: ٣٨)، ﴿.. قال فرعون ما أريكم إلاّ ما

أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾(غافر/ ٢٩).

والنوع الثاني من المجتمعات: مثله الاعلى، أوإلهه مشتق من طموح الأمة ومن تطلعها نحو المستقبل و إلى الإبداع والتطوير، لكنه مثل أعلى محدود يحوّله الإنسان إلى مطلق. ويستطيع هذا المثل الأعلى أن يحقق للمجتمع من النمو بقدرإمكاناته المستقبلية، لكنه سرعان ما يصل إلى حدوده القصوى ويستنفد أغراضه ويتحول إلى عائق للمسيرة.

ولقد رأينا في عمرنا القصيرفشل كثيرمن هذه المثل العليا في الاستمراربمسيرة المجتمع نحو كماله المنشود، بعد أن استطاعت تحقيق حركة إجتماعية محدودة على هذه المسيرة. فالحرية في العالم الغربي بعد أن حققت شوطًا في مضمارالإبداع والتطويرتحولت إلى مأساة بشرية تهدد العالم اليوم بخطرالسحق والإبادة والدمار. والاشتراكية التي رفع الشرق شعارها استطاعت أن تحرك طموحات المستضعفين زمنًا، لكنها كانت كبيت العنكبوت انهاربنفخة البيريسترويكا ﴿... و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾(العنكبوت/ ٤١). ويعبّرالقرآن عن هذه المثل العليا بأنها ﴿... كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾(النور/ ٣٩).

والنوع الثالث: مثله الأعلى هو «الله» سبحانه وتعالى.

والكائن المحدود في مثل هذا المجتمع يتحرك على طريق لا ينتهي. ومجال الإبداع والتطورالتكاملي أمام الإنسان في مثل هذا المجتمع لا نهائي. والتغييرالذي يحدث في هذه الحركة كمي وكيفي لا مجال لذكره في هذا الاستعراض العاجل. والحركة الضخمة التي شهدتها فترة صدرالإسلام كانت بفضل انفجارالطاقات الخلاقة على طريق هذا المثل الأعلى. وكل ما شهده التاريخ الإسلامي من حضارة وازدهار علمي واقتصادي وتفاعل بين الإنسان المسلم والطبيعة إنما كان من آثارتلك الدفعة الهائلة التي تحرّك بها المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى. وهذا العطاء مستمرحتى يومنا هذا رغم ما أحاط بالأمة المسلمة من هزيمة نفسية وخمول وخمود وسيطرة فرعونية.

فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدرما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، انا معكما بقدرما أنتما مع الإسلام، وبقدرما تحملون هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلط والاضطهاد.

إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة أن المسألة مسألة شيعة وسنة وليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

الشهيد محمد باقرالصدر

نداءات الشهيد
الصدر للشعب العراقي

النداء الأول للإمام الشهيد السيد الصدر «رض»

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيها الشعب العراقي المسلم: إني أخاطبك أيها الشعب الحرّ الأبي الكريم، وأنا أشدُّ الناس ايمانًا بك، وبروحك الكبيرة، وبتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازًا لما طفحت به قلوب أبنائك البررة، من مشاعرالحب والولاء والبنوة للمرجعية إذ تدفقوا إلى أبيهم يؤكدون ولاءهم للإسلام بنفوس ملؤها الغيرة والحمية والتقوى يطلبون منّي أن أظل أواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب لأنها آلامي.

وأني أود أن أؤكد لك يا شعب آبائي وأجدادي أني معك وفي أعماقك ولن أتخلى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك.

وأود أن أؤكد للمسؤولين أن هذا الحكم الذي فرض بقوة الحديد والنارعلى الشعب العراقي وحرمه من أبسط

حقوقه وحرياته من ممارسة شعائره الدينية لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يعالج دائمًا بالقوة والقمع وأن القوة ما كانت علاجًا حاسمًا دائمًا إلاّ للفراعنة والجبابرة. أسقطوا الأذان الشريف من الإذاعة فصبرنا، أسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا وطوقوا شعائر الإمام الحسين «ع» ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا، وحاصروا المساجد وملؤوها أمنًا وعيونًا فصبرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا، وقالوا انها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا، ولكن إلى متى، إلى متى تستمر فترة الانتقال، إذا كانت فترة عشرسنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجو المناسب لكي يختار الشعب طريقه فأية فترة تنتظرون؟

و إذا كانت فترة عشرسنين من الحكم المطلق لم تتح لكم أيها المسؤولون إقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلاّ عن طريق الإكراه فماذا تأملون؟ و إذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمد أجهزتها القمعية اسبوعًا واحدًا فقط، ولتسمح للناس بأن يعبروا خلال أسبوع واحد كما يريدون!

إنني أطالب بأسمكم جميعًا أطالب بإطلاق حرية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبدالله الحسين (ع). كما وأطالب

بإعـادة الأذان وصـلاة الجمعـة والشـعائرالإسـلامية إلـى الإذاعـة وأطالـب بأسـمكم جميعًـا بإيقـاف حمـلات الإكـراه علـى الانتسـاب إلـى حـزب البعـث علـى كـل المسـتويات وأطالـب بأسـم كرامـة الإنسـان بـالإفراج عـن المعتقلـين بصـورة تعسـفية و إيقـاف الاعتقـال الكيفـي الـذي يجـري بصـورة منفصـلة عـن القضـاء. وأخيـرًا أطالـب بأسـمكم جميعًـا وباسـم القـوى التـي تمثلونهـا بفسـح المجـال للشـعب ليمـارس بصـورة حقيقيـة حقـه فـي تـوفير شـؤون الـبلاد وذلـك عـن طريـق إجـراء انتخـاب حـرّينبثـق عنـه مجلـس حـرّيمثـل الأمّـة تمثـيلًا صـادقًا، وأنـي أعلـم أن هـذه الطلبـات سـوف تكلفنـي غاليًـا وقـد تكلّفنـي حيـاتي، ولكـن هـذه الطلبـات هـي مشـاعرأمـة، وطلبـات أمـة، و إرادة أمـة، ولا يمكـن أن تمـوت أمـة تعـيش فـي أعماقهـا روح محمـد وعلـي والصـفوة مـن آل محمـد وأصـحابه، و إذا لـم تسـتجب السـلطة لهـذه الطلبـات فـإني أدعـو أبنـاء الشـعب العراقـي الأبـي إلـى المواصلة فـي هـذه الطلبـات مهمـا كلّفـه ذلـك مـن ثمـن، لأن هـذا دفـاع عـن الـنفس، دفـاع عـن الكرامـة دفـاع عـن الإسـلام، رسـالة الله الخالدة والله ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد **باقرالصدر**

النجف الاشرف ـ٢٠ رجب ١٣٩٩ هـ

النداء الثاني للإمام الشهيد السيد الصدر«رض»

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز، يا جماهيرالعراق المسلمة التي غضبت لدينها، لكرامتها ولحريتها وعزتها ولكل ما آمنت به من قِيَم وُمثُل.

أيّها الشعب العظيم، إنّك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد السفاكين والجزارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهيربعد أن قيدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب، وخُيّل للسفاكين أنهم بذلك انتزعوا من الجماهيرشعورها بالعزة، والكرمة، وجردوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمدها العظيم لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبي إلى دمىً وآلاتٍ يحركونها كيف يشاؤون ويزقونها ولاء عفلق وأمثاله من عملاء التبشير والاستعماربدلًا عن ولاء محمد وعلي «صلوات الله عليهما».

ولكن الجماهيردائمًا هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة وقد تصبر ولكنها لا تستسلم.

وهكذا فوجيء الطغاة بأن الشعب لا يزال ينبض بالحياة وما تزال لديه القدرة على أن يقول كلمته.

وهـذا هـو الـذي جعلهـم يبـادرون إلـى القيـام بهـذه الحمـلات الهائلـة علـى عشـرات الآلاف مـن المـؤمنين، والشـرفاء مـن أبنـاء هـذا البلـد الكـريم، حمـلات السـجن، والاعتقـال، والتعـذيب، والإعـدام وفـي طليعـتهم العلمـاء المجاهـدون الـذين يبلغنـي أنّهـم يستشـهدون الواحـد بعـد الآخـر تحـت سـياط التعـذيب و إنّـي فـي الوقـت الـذي أدرك عمـق هـذه المحنـة التـي تمـرّبـك ياشـعبي وشـعب آبـائي وأجـدادي أؤمـن بـأن استشـهاد هـؤلاء العلمـاء واستشـهاد خيـرة شـبابك الطـاهرين وأبنائـك الغيـارى تحـت سـياط العفالقـة، لـن يزيـدك إلاّ صـمودًا وتصـميمًا علـى المضـي في هذا الطريق حتى الشهادة أو النصر.

وأنـا أعلـن لكـم يـا أبنـائي بـأني صـممت علـى الشـهادة ولعـل هـذا هـو آخـر مـا تسـمعونه منّـي، وأن أبـواب الجنّـة قـد فتحـت لتسـتقبل قوافـل الشـهداء حتـى يكتـب الله لكـم النصـر. ومـا ألـذّ الشـهادة التـي قـال عنهـا رسـول الله «ص» أنهاحسـنة لا تضـر معهـا سيئة والشهيد بشهادته يغسل كل ذنوبه مهما بلغت!!

فعلـى كـل مسـلم فـي العـراق، وعلـى كـل عراقـي فـي خـارج العـراق أن يعمـل كـل مـا بوسـعه ولـو كلّفـه ذلـك حياتـه مـن أجـل إدامـة الجهـاد والنضـال لإزالـة هـذا الكـابوس عـن صـدر العـراق الحبيـب، وتحريـره مـن العصـابة اللاإنسـانية وتـوفير حكـم صـالح فذّ شريف طيّب يقوم على أساس الإسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد باقر الصدر

شعبان ـ ١٣٩٩ هـ

النداء الثالث للإمام الشهيد السيد الصدر«رض»

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز. أيها الشعب العظيم.. إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك، وحياتك الجهادية بكل فئاتك، وطوائفك بعربك، وأكرادك بسنتك، وشيعتك، لأن المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر، ولا قومية دون أخرى، وكما أن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي فيجب أن يكون الموقف الجهادي، والرد البطولي، والتلاحم النضالي هو واقع كل الشعب العراقي.

و إني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة **بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء**، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعًا وعن العقيدة التي تهمهم جميعًا، ولم أعش بفكري وكياني إلاّ للإسلام طريق الخلاص وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدرما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، انا معكما بقدرما أنتما مع الإسلام، وبقدرما تحملون هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلط والاضطهاد.

إن الطـاغوت وأوليـاءه يحـاولون أن يوحـوا إلـى أبنائنـا البـررة مـن السـنة أن المسـألة مسـألة شـيعة وسـنة وليفصـلوا السـنة عـن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك.

وأريـد أن أقولهـا لكـم يـا أبنـاء علـي والحسـين وأبنـاء أبـي بكـر وعمـرأنّ المعركـة ليسـت بـين الشـيعة والحكـم السـني، إن الحكـم السـني الـذي مثّلـه الخلفـاء الراشـدون والـذي كـان يقـوم علـى أسـاس الإسـلام والعـدل حمـل علـيّ السـيف للـدفاع عنـه، إذ حـارب جنـديًا فـي حـروب الـردة تحـت لـواء الخليفـة الأول أبـي بكـروكلنـا نحـارب تحـت رايـة الإسـلام مهمـا كـان لونهـا المـذهبي، إن الحكـم السـنّي الـذي كـان يحمـل رايـة الإسـلام قـد أفتـى علمـاء الشـيعة قبـل نصـف قـرن بوجـوب الجهـاد مـن أجلـه، وخـرج الآلاف مـن الشـيعة وبـذلوا دمهـم رخيصًـا مـن أجـل الحفـاظ علـى رايـة الإسـلام ومـن أجـل حمايـة الحكـم السـني الـذي كـان يقـوم علـى أسـاس الإسـلام. إن الحكـم الواقـع لـيس حكمًـا سـنيًا وان كانـت الفئـة المتسـلطة تنتسـب تاريخيًـا إلـى التسـنن فـإن الحكـم السـنّي لا يعنـي حكـم شـخص ولـد مـن أبـوين سـنيين بـل يعنـي حكـم أبـي بكـروعمـرالـذي تحـداه طواغيـت الحكـم فـي العـراق اليـوم فـي كـل تصـرفاتهم وهـم ينتهكـون حـرمتهم للإسـلام وحرمـة علـي وعمـرمعًـا فـي كـل يوم وفي كل خطوة من خطواتهم الإجرامية.

ألا ترون يا أولادي و إخواني أنهم أسقطوا الشعائرالدينية التي دافع عنها علي وعمرمعًا؟

ألا ترون أنهم ملئوا البلاد بالخموروحقول الخنازيروكل وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمرمعًا؟

ألا ترون أنهم يمارسون أشد ألوان الظلم، والطغيان تجاه كل فئات الشعب؟ ويزدادون يومًا بعد يوم حقدًا على الشعب وتفننًا في امتهان كرامته والانفصال عنه والاعتصام ضده في قصورهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات بينما كان علي وعمريعيشان مع الناس وللناس وفي وسط الناس ومع آلامهم وآمالهم.

ألا ترون إلى احتكارهؤلاء السلطة احتكارًا عشائريًا يضفون عليه طابع الحزب زورًا وبهتانًا؟ وسدّ هؤلاء أبواب التقدم امام كل جماهيرالشعب سوى أولئك الذين رضوا لأنفسهم الذل والخضوع وباعوا كرامتهم وتحولوا إلى عبيد أذلاء، إن هؤلاء المتسلطين قد امتهنوا حتى كرامة حزب البعث العربي الإشتراكي حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة تفرض الانضمام إليها والانتساب إليها بالقوة والإكراه. و إلاّ فأي حزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يطلب الانتساب إليه بالقوة؟ إنّهم أحسوا بالخوف حتى من الحزب نفسه الذي يدّعون تمثيله، إنهم أحسوا بالخوف منه إذا بقي حزبًا حقيقيًا له قواعده التي تبنيها، ولهذا أرادوا أن

يهدموا قواعده بتحويله إلى تجمع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب ليفقد أي مضمون حقيقي له.

يا أخواني وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة من أبناء بغداد وكربلاء والنجف من أبناء سامراء والكاظمية.. من أبناء العمارة والكوت والسليمانية.. من أبناء العراق في كل مكان:

إنّي أعاهدكم بأني لكم جميعًا ومن أجلكم جميعًا و إنّكم جميعًا هدفي في الحاضروالمستقبل، فلتتوحد كلمتكم ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة وبناء عراق حرّ كريم تحكمه عدالة الإسلام وتسوده كرامة الإنسان ويشعرفيه المواطنون جميعًا على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنهم إخوة يساهمون جميعًا في قيادة بلدهم وبناء وطنهم وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الإسلامية وفجرتاريخنا العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

النجف الأشرف شعبان ـ١٣٩٩ هـ

مقصد الدين
في منظومة فكر الشهيد الصدر

محمد أمين أحمدي (*)

تعريف الدين

لم تكن نظرة الشهيد الصدر للدين من النوع العلمي والأكاديمي وكما هو مطروح في ميادين المعرفة الدينية الحديثة. لذا فهو لا يعرّف الدين بأنه ظاهرة اجتماعية ونفسية وثقافية، بل يحاول تقديم تعبيروفهم منظم وقابل للدفاع ـ بشكل عقلاني ـ عن أصول وأهداف وأحكام دين الإسلام، وفي هذا الصدد لا نجده يقدم للدين تعريفًا بالمعنى الأخص، وكلّ ما نجده هناوهناك من مؤلفاته، أن للدين وجهين، أحدهما تكويني والآخر تشريعي، وأن للدين جذورًا في فطرة الإنسان، ولهذا فهو مجبول على قبول الدين.

فالدين عند السيد الشهيد سنة تاريخية، تنبع من باطن الإنسان، وفطرته توفّرله الأرضية المناسبة لقبول الشريعة وهي الصورة القانونية للدين، والتي جاءت من قبل الله تعالى، الذي أنطق الفطرة الدينية للإنسان، لذا فقد ربطت الشريعة أساسها

---

*- موجزلدراسة أعدّ خطتها وأشرف عليها مركزالدراسات الاستراتيجية بمدينة قم ، استخلصها ونقلها إلى العربية علاء الرضائي .

بالمعنويات الموجودة في الفطرة البشرية، ودونت أصولها العقائدية التي تعدّ لغة الفطرة مع الأخلاق، وقدمت نظامًا كاملًا شمل جميع جوانب الحياة الإنسانية على أساس تلك الأصول المقترنة بالمعنويات والأخلاق. ولهذا يمكن طرح الدين على نحوين: باعتباره شريعة منزلة من قِبل الله، أو باعتباره سنة تاريخية وقانونًا مصدره تركيبة الإنسان وفطرته [1]. كما أن الدين تعبير عن علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بالكون، فالدين إذن إطار شامل لكلّ نظام الحياة.. [2]. «وهو عقيدة معنوية وخلقية، ينبثق عنها نظام كامل للإنسانية، يرسم لها شوطها الواضح المحدّد، ويضع لها هدفًا أعلى في ذلك الشوط ويعرفها على مكاسبها منه» [3].

إن ما نفهمه من هذه العبارات، هو أن الدين وباعتباره شريعة، عبارة عن مجموعة من القوانين والأصول العقائدية المنسجمة مع التكوين الذي هو البنية الوجودية للإنسان، وعلى حدّ تعبير الشهيد الصدر، يمكن القول: إن للدين ـ وكما ذكرنا ـ وجهة تكوينية وهي جزء من الواقعيات غير الإنشائية، ووجهة تشريعية مصدرها الإرادة التشريعية للشارع.

١- الصدر، السيد محمد باقر/ السنن التاريخية في القرآن.

٢- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد الصدر(١٣) المدرسة الإسلامية، ص ٧٢.

٣- الصدر، السيد محمد باقر/ فلسفتنا، ص ٤٤ وراجع أيضًا: المجموعة الكاملة (١٣ المدرسة الإسلامية) ص ٩٦.

و إذا ما تغافل الإنسان من الشريعة التي بها يؤمن متطلباته الضرورية يكون قد ألقى بنفسه في الهاوية.

ويحتمل أن يكون قصد السيد الشهيد من الوجهة التكوينية للدين هو الصورة الجامعة للتفسيرين: (التجربة العرفانية والشعورالديني) المرتبطين بالوجهة التشريعية التي من خلالها يستطيع الإنسان الإجابة عن التساؤلات الملحة التي تواجهه والتي لا يمكن الإجابة عنها إلاّ من خلال الشريعة، فعندئذ يستطيع أن يشيد نظامًا كاملًا وجامعًا على أساس المعنويات.

ومن خلال هذه النظرة، نجد تأكيدًا على أن جذورالدين تمتد في البنية الوجودية للإنسان، أما حول الجذورالفطرية للدين ، فهو مالم أتلمّسه بوضوح من خلال قرائتي لمؤلفات الشهيد الصدر، ويمكن تفسيره بالاتجاه الإنساني نحو المعنويات، أو بما يعبرعنه بعض علماء النفس وفلاسفة الدين بالشعورالديني أو التجارب العرفانية، وأيضًا يمكن تفسيره على أن الشريعة هي المصدرالذي يؤمّن المتطلبات الضرورية للإنسان، فإذا ما تغافل الإنسان عن تلك المتطلبات، يكون قد ألقى بنفسه في الهاوية.

وعلى هذا يكون الشاخص في الدين، هو الاتجاه المعنوي و إقامة نظام في الحياة على أساس أُفقه الواسع والمتعدد

الأبعاد والجوانب. وأما فيما يتعلق بمعنى جامعية وشمولية الإسلام لمختلف جوانب الحياة وأبعادها، ففي الوهلة الأولى قد نفهم من كلام الشهيد الصدرأن الدين كفيل بتنظيم جميع جوانب الحياة الإنسانية، كالبرمجة وتحديد الأهداف والوسائل و.. الخ، لكن، ومن خلال التدقيق في سائرمؤلفاته، نجد أنه يقصد: أن البشرعاجزون عن تحديد مصالحهم بمفردهم من دون الإرشاد الغيبي لهم عن طريق «الوحي»، وأنهم بحاجة لدورالشريعة في هندسة النظام الفكري والعملي، ويكون ذلك من خلال الزخم والدافع المعرفي الذي تمنحه لهم، والذي يضاف إلى سائرمنجزاتهم المعرفية، فتصحبها أحيانًا وتهذبها، وتكملها أحيانًا أخرى. وهذا معنى شمول الدين للحياة، بمعنى أن الدين يمتلك نظرة عامة لجميع جوانب الحياة الإنسانية، والتي تعدّ الإطارالعام لجميع الجهود والمساعي البشرية التي يقوم بتقييمها على أساس مصلحة الإنسان وسعادته [1].

حاجة الإنسان إلى الدين

في هذا القسم من الدراسة سنتناول موضوع حاجة الإنسان إلى الدين من منظارالشهيد الصدر. ومن خلال هذه

١- راجع: الإسلام يقود الحياة (٢) صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي/ ص ١٠ - ٢٤.

الحاجة يستدل الشهيد الصدرعلى ضرورة الدين والحكومة والقيادة الدينية. أما الغرض الأساسي الذي يستند إليه الشهيد الصدرفي حاجة الإنسان إلى الدين، فهو عجزه في الفهم (الإدراك) والإرادة. فالإنسان عاجزعن تشخيص مصالحه بشكل جيد، وبنحو مطلوب (على مستوى الضرورة) من الناحية الإدراكية . إضافةً إلى أنه ـ أي الإنسان ـ يعاني من مشكلة عملية، وهي، وجود اتجاه داخلي في ذات الإنسان ـ بدون الوحي والعقيدة الدينية ـ لا ينسجم مع مكانته الاجتماعية. وهذا الاتجاه والميل يحرمه من بلوغ أفق أوسع وأسمى.

وبشكل مجمل يرى الشهيد الصدرأن حاجة الإنسان إلى الدين تظهرفي الموارد التالية:

١ـ عدم قدرة الإنسان في حلّ التعارض الموجود بين مصالحه الشخصية ومصالح المجتمع.

٢- عدم وعي الإنسان لجميع قدراته الذاتية، فلو ترك حرًّا لوحده سيكون مصيره الوقوع في هاوية الشهوات الحيوانية.

٣- الإنسان عاجزلوحده عن تشخيص النظام الاجتماعي الأصلح، وحتى لو قدرعلى إدراكه وفهمه، فهو عاجزعن تطبيقه.

ومن خلال هذه الأصول، يصل الشهيد الصدرإلى النتائج التالية:

الأولى: يحتاج الإنسان إلى الدين باعتباره دليلًا ومرشدًا أمينًا وواعيًا على طريق الكمال المطلق، وآفاق عالم المعاني.

الثانية: يحتاج الإنسان إلى الدين في تشخيص النظام الاجتماعي الأصلح وتطبيقه.

الثالثة: الإنسان بحاجة إلى الحكومة والقيادة الإسلامية بنحو خاص.

وعلى أساس ما تقدم، سنتعرض لأقوال الشهيد الصدر بشكل أوسع في هذا المجال، ثم نقوم بدراستها:

١ـ الدين وحلّ مسألة التعارض بين المصلحة الشخصية والمصالح الاجتماعية:

يميل الإنسان وبشكل طبيعي إلى تقديم مصالحه الشخصية وهذا ما لا ينسجم مع المصالح الاجتماعية أو الإنسانية بشكل عام. وفي هذا المجال ليس باستطاعة الحكومة ولا العلم حلّ هذا التعارض.

فالحكومة لا تستطيع حلّ ذلك؛ لأنها محكومة أيضًا بتقديم مصالح الفئة الحاكمة، وفي كونها تؤثر مصلحتها التي تنشأ من حب الذات على مصالح الجماعة. وأما عدم إمكانية حلّها عن طريق العلم، فسببه أن العلم يمنح الإنسان المعرفة والوعي بالحقائق التي تحكم الطبيعة والعلاقات الاجتماعية، دون إعطائه القوة الأخلاقية التي يسيطر بها على

مصالحه الذاتية. فمجرد فهم العلاقة بين الرأسمالية وتقليل أجورالعمال إلى مستوى تأمين الحدّ الأدنى من ضروريات حياتهم، لا ينتج عنه ما يعالج تلك الظاهرة المرضية أو تدميرالنظام الرأسمالي، باعتبارأن العلم يقدم صورة مجردة عن الواقع فقط. وأن التجربة والتدبيرالبشري في حلّ هذه المعضلة وأمثالها محكومة في النهاية بالدوافع الذاتية والفردية، التي تعدّ بذاتها مصدرًا للمشكلة الاجتماعية [1].

وعلى أساس هذا الدليل ، يكون الدين الحلّ الوحيد لهذه المعضلة الاجتماعية؛ لأن حلّ التعارض بين المصالح الذاتية والاجتماعية يحتاج إلى نقطة اشتراك تجمع بين الدوافع الذاتية من جهة والمصلحة الاجتماعية والعامة من جهة أخرى، والدين هو العامل الوحيد الذي يستطيع بلورة المصالح الفردية والذاتية في إطارالمصلحة الاجتماعية العامة. فالدين وبالاستناد إلى فردية الإنسان (لا نوعيته التي تعدّ مسألة انتزاعية) يفهم أن للحياة وجهًا خالدًا، وأن غض النظرعن المصالح الفردية في سبيل رضا الله تعالى، تكون نتيجته رضا الله ونعمه الخالدة. وبهذا الشكل يقدم الدين فهمًا آخرعن النفع والضرر، هو أسمى من مستوى المفهوم المادي والتجاري السائد. وعلى هذا

١- الإسلام يقود الحياة (٥) منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ ص ١٤-١٥، ١٧، وأيضًا اقتصادنا ص ٢٩٩ _ ٣٠٩ وكذلك: المدرسة الإسلامية ، ص ٥٩ - ٧٣.

الأساس، يكون الأهم هو اللذة وقبول الضرر من أجل مصلحة المجتمع والنفع الذي سيلحق بالإنسان في حياة أسمى وأفضل. وهكذا تندمج مصالح المجتمع بمصلحة الفرد[1].

وفي ضوء هذا الدليل، يكون منتهى ما نتوقعه من الدين هو تقديم مبرر عقلاني لسعي الإنسان في طلب العُلى ضمن مصالح الجماعة. لكنه لا يمكن الاستناد من خلال هذه الأدلة إلى ضرورة شرعية القوانين أو لزوم الحكومة الدينية. لهذا يمكن تسجيل ملاحظتين على هذا التفسير، وهما:

أولًا: إذا كان الاعتقاد بأن «التغاضي» عن المصالح الآنية من أجل الحياة في عالم آخر هو الحلّ لمشكلة التعارض، فما هي ضرورة تحويل منافع هذا التغاضي أيضًا إلى ذلك العالم؟ بل يمكن حلّه من خلال تفسير آخر أيضًا، وهو أن تقديم المصلحة الفردية يؤدي إلى فقدان الأمن والهدوء العام، و إلى انقراض المجتمع وظهور مشكلة اجتماعية، تطال أضرارها بالنهاية الفرد نفسه. وعلى هذا، يلزمه القناعة بحدّ معين من النفع، لتنتظم أمور المجتمع وتحلّ مشكلته هو أيضًا، باعتبار أن اضطراب النظام الاجتماعي واختلال العدل، يعرضه هو أيضًا

١- الإسلام يقود الحياة (٥) منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ ص ١٤-١٥، ١٧، وأيضًا اقتصادنا ص ٢٩٩ _ ٣٠٩ وكذلك: المدرسة الإسلامية، ص ٥٩-٧٣.

إلى مشكلة، لو أصبح في يوم من الأيام شخصًا ضعيفًا، فسيجري عليه ما جرى على الآخرين. وعلى هذا، يكون من الأفضل له قبول الضوابط والقوانين الاجتماعية وكذلك المؤسسات التنفيذية، وأن يدخل ضمن شبكة من العقود المتقابلة بين الأفراد، لكي يأمن جانب الآخرين، ومن الطبيعي أن تكون مثل هذه الأنظمة مبنية على مؤسسات تنفيذية قوية ومقتدرة، تسلب الأشخاص المحكومين إمكانية الزيغ عن تلك العقود أو تخطيها.

ثانيًا: يفترض البرهان المذكور، أن الإنسان موجود يحدّد أهدافه ويسعى إليها على أساس المصلحة، وأنه ينظر إلى المصالح الآنية والبعيدة عند اختيار أهدافه، ففيما لو كانت المصالح البعيدة المستقبلية أهم وأكبر من المصالح الآنية، فإنه يتغاضى عن الأخيرة لصالح الأولى. لكنه لم يثبت ـ حتى عند عامة المتدينين ـ تقديم المصالح البعيدة على المصالح الآنية، فالكثير من البشر يخاطرون بتقديم مصالحهم الآنية على تلك المصالح البعيدة والمستقبلية، كما أن القليل من الناس يمتلك تربية دينية و إيمانًا قويًا ، إلاّ أن نقول بأن المجتمع الذي يطمح الدين لتأسيسه، يبلغ مستوى من الإيمان والاعتقاد الديني لا نراه في المجتمعات المتدينة الحالية، كما أن الإنسان لا يتغاضى عن مصالحه إلاّ بوجود إيمان ديني قوي، وفيما عدا

ذلك، نجد الناس العاديين يقدمون في أغلب الأحيان مصالحهم الآنية على تلك البعيدة والمستقبلية. ودليل ذلك انعدام وجود فوارق واضحة بين المجتمعات الدينية، مثل مجتمع المسلمين، والمجتمعات غيرالدينية، فلا نشاهد في المجتمعات الدينية مراعاة لحقوق الآخرين أكثرمن تلك المجتمعات التي تفتقد الصفة الدينية.

٢- عدم إدراك الإنسان لقدراته وضعفه:

لو ترك الإنسان على حاله من دون مرشدٍ وقائدٍ واعٍ، سيبقى إلى الأبد جاهلًا بقدراته وغيرمطلع على مهالكه، وسيكون عرضة للوقوع في الشهوات والانحراف عن مسيرة الخلافة الإلهية التي تعدّ الغرض المقصود من خلقه، ولهذا وضع له تبارك وتعالى خطّ الشهادة (الولاية) الذي يعدّ تدخلًا ربوبيًا من أجل صيانة الإنسان من الانحراف في خط الخلافة، إلى جانب هذا الأخير. ويبدأ خط الشهادة بالأنبياء(ع) ومن ثم إلى الأئمة المعصومين(ع) حتى يصل في عصرالغيبة إلى فقهاء الإسلام [1].

وهذا القول الأخيريمكن أن يكون أساسًا لنظامين:

الأول: حكومة دينية مقتدرة، يتراجع فيها العقل الجمعي للناس أمام القرارات التي يتخذها القائد الديني الصالح، والتي

١- الأنبياء ص ٢٣.

يطلب فيها من الناس الرجوع إلى القائد المصلح في تشخيص المصالح من المفاسد.

الثاني: حكومة دينية أكثر اعتدالًا من الأولى، في عصر الغيبة.

الشهيد الصدر يميل في تفسيره إلى الثانية، لأنه يسعى إلى إعطاء القوانين الوضعية العرفية والعقلائية و إلى الإشراف العام من قبل الناس باعتبارهم خلائف الباري عزّوجل في منطقة الفراغ، يسعى إلى إعطاء كلّ ذلك صفة موضوعية ضمن إطار الشريعة. ويرى أن الفقيه الجامع للشرائط معيّن من قبل الله للحكم تعيينًا نوعيًا (أي تعيين المواصفات والشروط والخصوصيات العامة)، أما التعيين الشخصي للفقيه فقد أوكل إلى الأمة . وحيث إن الفقيه ليس معصومًا، فهو بحاجة إلى شهيد، والى معيار موضوعي آخر، بمعنى ضرورة تدبير طريقة معينة كي يتم الإشراف على سلوكياته بنحو قانوني[1] .

٣- ديناميكية الهدف وعدالة القائد:

إضافة إلى ضرورتها الشرعية فإن للدولة الإسلامية ضرورة عقلية أيضًا، لأن التجربة الإنسانية أثبتت عدم سير القدرات الإنسانية في مجالها الطبيعي دون وجود حكومة دينية، إذ لا

١- المصدر نفسه.

يمكن للإنسان الوصول إلى ذروة الحضارة والمجد بدونها. في حين أن إقامة الحكومة والدولة الدينية على أساس الإيمان بالله وصفاته الكمالية، يهيئ للإنسان إمكانية التحرك في طريق المدنية والسموّ. كما أن إقامة المجتمع الصالح الذي يتجه نحو العدل، يحتاج إلى قائد ورع وتقي، ومثل هذا الشخص لا يوجد إلاّ من خلال العقيدة والتربية الدينية [1].

وهذا الدليل، يتوقع من الدين أمرين:

الأول: يحتاج الإنسان في حركته التكاملية إلى هدف غير محصور ومقيّد، وهذا لا يكون إلاّ بالإيمان بالله والسير إليه. لكن المشكلة الموجودة هنا، هي كيفية تصور الدولة لله جلّ وعلا وصفاته في أسس سياساتها وأهدافها وبرامجها، ولكي تتضح فاعلية ذلك الهدف في تحرك الدولة الإسلامية والمسلمين، بشكل ملموس.

الثاني: الحاجة إلى قائد تقي وعادل وهذا لا يكون إلاّ بالإيمان والتربية الدينية.

هاتان النقطتان ـ وعلى الرغم من الفروضات التي يسلم بها على أساسهما ـ لا تتركان في الأذهان جوابًا عمّا هو المطلوب من الدين؟ سوى أنه سند أخلاقي قوي للدولة، لأنه ومن خلال الهدف الإلهي، يتيسر الكمال الإنساني في مسيرة

١- الإسلام يقود الحياة (منابع القدرة في الدولة الإسلامية) ص ١١-١٥.

التكامل والتعالي المعنوي، كما أن القائد العادل يعدّ الضامن في إقامة العدل، فهما لا تبرهنان ـ مثلًا ـ على أن جميع برامج الحكومة الدينية مصدرها الدين، أو أن مثل تلك البرامج يتضمنها الدين أساسًا.

٤- تشخيص النظام الاجتماعي الأصلح:

مشكلة الإنسان المعاصر، مشكلة اجتماعية. والإنسان وأقف على ذلك وقوفًا تامًا، ويعلم أن النظام الاجتماعي يقع تحت تأثير الإرادة والأعمال الإنسانية، وأن القوانين التي تحكمه ليست خارجة عن إرادته كما هو الحال بالنسبة للقوانين التي تحكم الطبيعة. وعلى أساس ما تقدم يمكن تحديد مشكلات الإنسان المعاصر في: ماهو النظام الأصلح؟ ما الضمان في أن ماناه الأصلح حسب فهمنا، هو الأصلح في الواقع؟ وحتى لو نجحنا في تشخيص النظام الأصلح، فهل سننجح في التطبيق أيضًا؟

وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة مختلفة، فالبعض يرى أن الإنسان يستطيع تشخيص الأصلح وتطبيقه من خلال التجربة، وهو ما فعله عمليًا. وفي هذا الصدد ينقل الشهيد الصدر بعض الآراء وينقدها، كما في التالي:

أ- تجربة الظواهر الطبيعية تختلف عما هي عليه في الظواهر الاجتماعية، والسبب في ذلك يعود إلى:

أولًا: لا يمكن فهم المصالح الاجتماعية بفترة زمنية قصيرة، فهي بحاجة إلى زمن طويل قد يمتد على مدى أجيال، من أجل تشخيص النظام الأصلح.

ثانيًا: ولا تكفي هنا التجربة الفردية، بل هناك حاجة إلى تجربة اجتماعية.

ثالثًا: التجربة الاجتماعية تفتقد للموضوعية الموجودة في التجارب الطبيعية، ولا يمكن فصلها عن التأثيرات والدوافع النفسية والاجتماعية و.. الخ، ولهذا السبب من الصعب اعتبارها تعبيرًا عن الحقيقة، لأنها قد تعمل خلاف ذلك تمامًا، بأن تخفي الحقيقة تماشيًا مع مصالحها.

ب ـ لو فرضنا نجاح الإنسان في تشخيص النظام الأصلح، فما الذي يدفعه إلى التغاضي عن مصالحه الشخصية من أجل مصلحة الجماعة؟ فالإنسان يسعى إلى تشخيص وضمان مصالحه الفردية وليس مصلحة البشرية جمعاء. إضافةً إلى ذلك، لا يمكن للنظام الوضعي الارتقاء بالإنسان إلى أسمى مدارج الكمال، لأن مثل هذا النظام الاجتماعي تعبيروتجلٍّ لشخصية الإنسان ومرتبته الروحية، لهذا فهو عاجز عن رسم صورة دقيقة عن عالم المعنى والمراتب الإنسانية، أو أن يخطط للوصول إلى تلك العوالم السامية [1].

١- المدرسة الإسلامية، ص ١٩ - ٢٣.

أمـا الفروضـات الأوليـة التـي طرحهـا الشـهيد الصـدرفـي هـذا الدليل فهي كالتالي:

١ـ يحتـاج تشـخيص النظـام الأصـلح إلـى فتـرة زمنيـة طويلـة. ولهـذا فـإن توكيـل مهمـة هـذا التشـخيص إلـى البشـريعـدّ مخـاطرة كبيرة.

٢- الإنسـان والعقـل الجمعـي البشـري عـاجزان عـن تشـخيص النظـام الأصـلح، لأن العقـل البشـري يقـع تحـت تـأثيرالـدوافع الفرديـة وأمثالهـا فـي القضـايا الاجتماعيـة، وبهـذا الشـكل يفتقـد للموضـوعية اللازمـة. وفـي هـذا الفـرض يـدعي الشـهيد الصـدر عجـزالعقـل الجمعـي البشـري (بجميـع الوسـائل التـي يمتلكهـا) فـي تشـخيص النظـام الأصـلح، وعلـى أسـاس ذلـك يواجـه السـؤال الآتـي: مـا هـي قيمـة المعرفـة البشـرية فيمـا يخـص القضـايا الاجتماعيـة؟ وهـل للعلـوم الاجتماعيـة القـدرة علـى كشـف الحقائق كما هي عليه العلوم الطبيعية؟

ويقـدم الشـهيد الصـدرتقريـرًا عـن السـؤال المـذكورفـي البداية، ومن ثم يجيب عن ذلك التساؤل:

هـل يمكـن للبشـرتنظـيم حياتـه الاجتماعيـة علـى أسـاس المعرفـة العلميـة التـي يمتلكهـا فـي مجـالات متنوعـة مثـل علـم الـنفس وعلـم الاجتمـاع والتجـارب التـي اكتسـبها؟ فالمعرفـة العلميـة تمكنـت فـي مجـالات أخـرى وبالدقـة التـي تمتـازبهـا مـن

حلّ الكثيرمن المشاكل التي واجهت البشرفي حياته. وقد أجاب البعض على هذا السؤال بالإيجاب، واستدلوا على أتم وجه، على أساس المعرفة العلمية. وأضافوا أنه يمكن الوصول إلى الطريقة التي يمكن بها إشباع حاجات الإنسان الاجتماعية، بوسائل المعرفة العلمية، لأن تلك الحاجات كسائرالظواهرالوجودية، واقعية ويمكن فهمها ودراستها بالوسائل العلمية والتجريبية.

لكن تجدرالإشارة إلى أن النظام الاجتماعي الذي شيده الأوروبيون، مبنيّ على أسس فلسفية ونظرية وليست علمية، فإحدى آرائهم الأساسية، حقوق الإنسان ـ مثلًا ـ وهذه المقولة لا يمكن دراستها بالمعاييرالعلمية المحدودة. وبديهي فإن العلوم الموجودة مهدت الطريق لإشباع الكثيرمن حاجات الإنسان، لكن المشكلة الأساسية هي تحقيق التوازن بين متطلبات وحاجات جميع الأفراد ضمن إطارونظام معيّن. وهذا ما يحتاج إلى تجربة تاريخية طويلة أوسع من تجربة بعمر فرد أو حتى جيل معيّن.

وعلى هذا الأساس، فالنظام الاجتماعي لا يستند فقط إلى التجارب العلمية، بل يستند أيضًا إلى آراء نظرية وفلسفية حول مكانة الإنسان وموقعه في الحياة وحقوقه. فضلًا عن أن المشكلة الاجتماعية المهمة هي في إيجاد توازن بين مصالح

الفرد والجماعة، وهي لا يمكن حلّها بالعلوم الموجودة.

ولكي يؤكد عجز المعرفة البشرية في الوصول إلى النظام الاجتماعي الأصلح، يقوم الشهيد الصدر بدراسة المذاهب الاجتماعية البشرية المعاصرة، مثل النظام الماركسي والنظام الرأسمالي، ويستنتج من خلال ذلك عدم قدرة المذاهب الوضعية الموجودة في حلّ المشكلة الإنسانية المعاصرة. وعلى سبيل المثال، نراه يشير إلى بعض موارد ضعف النظرية الديمقراطية، بما يلي:

١ـ تفتقد هذه النظرية إمكانية الدفاع الموثق والمبرهن عن الحياة وحدودها. إذ كيف يمكنها أن تطمئن الإنسان في أن تطبيقها يؤمن له مصالحه، في حين أن للإنسان خالقًا هو أعلم وأفضل منه يستطيع برمجة وتنظيم حياته؟

٢- كيف يمكن للديقمراطية (أو أي مذهب وضعي آخر) إغفال هذه المسألة وهو أن تكون هذه الحياة مقدمة لحياة أخرى. في حين ثبوت كونها مقدمة لحياة أخرى، لابد من أن تنظم بشكل يتناسب وحقيقتها كمقدمة وبما يتلائم ومصالح الإنسان الأبدية [1] ؟

٣- الفرض الثالث الذي يطرحه الصدر في الدليل المذكور، هو التعارض الموجود لدى الإنسان بين مصالحه

١- المصدر نفسه، ص ١٩ - ٣٨.

الذاتيــة والمصــلحة العامــة. وهــذا التعــارض هومصــدرالمشــاكل الاجتماعية، التي لا يستطيع حلّها سوى الدين.

أمــا المعضــلة الحقيقــة التــي تواجــه الشــهيد الصــدر، فهــي فــي النجــاح النسـبي الـذي اسـتطاعت المجتمعـات الغربيـة تحقيقـه فـي مجـال إقامـة نظـام اجتمـاعي يقـل فيـه الاخـتلاف والعنـف والفقـر والبطالــة، وفــي تمكنهــا مــن تشــييد مؤسســات قانونيــة و إداريــة فاعلـة، تتـدارس علـى الـدوام أسـاليب إصـلاح النظـام الاجتمـاعي بمســاعدة العقــل النقــدي. كمــا أن هــذا النظــام الاجتمــاعي الغربــي اسـتطاع المحافظـة علـى حـقّ جميـع الأفـراد أمـام سـلطة الدولــة والأثريــاء. وفــي جــواب ذلــك يقــول الشــهيد الصــدر: إن المجتمعـات الغربيـة لـم تـنجح فـي هـذا المجـال، ودليلـه فـي ذلـك النــواقص والمســاوئ الموجــودة فــي النظــام الرأســمالي ، ومــن أبرزها:

أولًا: الديمقراطيــة فــي النظــام الغربــي الرأســمالي هــي ســلطة الأغلبيـة علـى الأقليـة. والسـؤال الـذي يطرحـه الشـهيد الصـدرفـي هـذا المجـال، هـو: بمـا أن العقـل المتسـلط علـى هـذا النظـام (أي العقـل الـذي يقـوم باتخـاذ القـرارعلـى أسـاس المصـالح والمفاسـد والـذي نعبـرعنـه بالعقـل العملـي) هـوعقـل مـادي، لامكـان للقـيم المعنويـة فيـه ـ و إذا كانـت هنـاك قـيم معنويـة فهـي بـدون سـند عقائــدي ـ فمــا الــذي يحــول دون حكــم الأغلبيــة بمــا يضــرّ الأقلية؟

ثانيًا: أن حرية النشاطات الاقتصادية والسياسية للفرد، والثورة الصناعية وتطورالنظام الآلي والتجارة والحرّة، أدت بالنهاية ومن الناحية العملية إلى سيطرة فئة محدودة على الاغلبية العظمى من المجتمع. وهذا الفئة الصغيرة ومن خلال ثروتها تستطيع السيطرة على المؤسسات المهمة مثل الصحافة والإذاعة والتلفزة والأحزاب السياسية وهي عمليًا الحكومة الحقيقية التي تفرض سلطتها على الجميع. وعلى هذا تكون المساواة في الحقوق السياسية بين المواطنين مجرد خيال فارغ.

ثالثًا: أن العقلية النفعية والمادية التي تسيطرعلى هذا النظام، ومن أجل الحصول على المواد الأوليّة والأسواق، تجعله يفكردومًا بالسيطرة على جميع العالم، وهذا ما أدّى إلى ظهورظاهرة الاستعماربأشكاله المتعددة، فكان السبب والمصدرفي الأزمات الدولية [1].

وعلى أساس هذا البرهان، فإن ماهو مطلوب من الدين، يكمن في الموارد التالية:

١ ـ تقديم تفسيرواقعي عن الحياة، بشكل يمكن من خلاله بيان الحياة بعد الموت وحجم علاقتها بهذه الحياة الدنيا، والدفاع عن القيم الأخلاقية والمعنوية.

١- المصدرنفسه، ص ٤٠-٤٤.

٢- التربيــة الأخلاقيــة والدينيــة التــي يتغاضــى علــى أساســها الإنسان عن مصالحه الآنية.

٣- بيــان الأحكــام، أو بعبــارة أخــرى بيــان حكــم أفعــال الإنسـان مـن حيـث تأثيرهـا علـى واقعـه ومسـتقبله وهـو مـا عبـرعنـه الإسلام في قالب الفقه.

٤- طـرح النظـام الاجتمـاعي الأصـلح، لأن المـذاهب الوضـعية تعجـزعـن طـرح ذلـك. و إن كانـت تجربـة النظـام الأصـلي تعـدّ مخاطرة كبيرة وتحتاج إلى فترة أطول لاقتطاف ثمارها.

أمـا كيفيـة طـرح الإسـلام والـدين للنظـام، ومـا يقصـده الشـهيد الصـدربالنظـام وحجـم تـأثيرالمعرفـة العقليـة والمعرفـة عـن طريـق الـوحي فـي إيجـاد وتصـورالنظـام الاجتمـاعي، فهـو مـا سـنوكله إلى موضـوع سـعة دائـرة الـدين وضـمن القسـم الخـاص بالدين والنظام الاجتماعي .

ومـن الضـروري الفصـل بـين عـدّة مسـائل فـي هـذا الكـلام الذي طرحه الشهيدالصدر، وهي:

أ ـ هـل عجـزالإنسـان عـن تشـخيص النظـام الأصـلح لحـل مشـاكله فـي الحيـاة الـدنيا يشـكل الأسـاس فـي البحـث؟ هـل الإنسـان عـاجزعـن وضـع نظـام سياسـي ـ علـى سـبيل المثـال ـ ينسـجم ومتطلباتـه الأساسـية التـي تنطلـق مـن أخلاقـه وسـلوكياته؟ وهـل يعجـزعـن حـلّ مشـكلة الفقـروالغنـى أو

الإدارة والإشراف المؤثرعلى السلطة و إصلاح الحكومة الفاسدة، أو الاستفادة من المواهب الإلهية في سبيل التقدم الاقتصادي؟ و..

ب ـ وهل الحلول البشرية تبقى ناقصة من بعض الجهات دون الهداية الربانية؟ وهنا يمكن تحليل المسألة الأولى بنحوين، لا نراهما في كتابات الشهيد الصدر، وهما:

أولًا: لم يترك الإنسان القديم في هذا المجال تجربة ناجحة ومهمة، وبقي محصورًا من الناحية العملية بـ«المقدسات» القبلية وبما يراه المستبدون من الحكام والسلاطين . فهناك فوارق واضحة بين قيمه الأخلاقية والقيم التي يؤمن بها الإنسان المعاصر، مثل : العدالة والحرية وأمثالهما، وحتى لو قلنا بوجود تشابه بين قيم الإنسان القديم والحديث في المجالات التي ذكرناها، فلا زالت هناك فوارق، وهي أن هذه القيم الأخلاقية لم يتأكد رسوخها في الوجدان العام للمجتمع، بحيث يكون عدم العمل بها من قبل أحد أفراده سلوكًا غير طبيعي، وعلى هذا يكون مجرد الشعور الأخلاقي غير كافٍ. والظاهر أن بعض القيم الأخلاقية مثل العدالة والحرية، حسب المفهوم المعاصر لكلّ منهما، لم تتبلور نظريًا في العصور الماضية.

وفي هذا الحالة، يمكن القول، لو لم يهد الله البشر في

العصورالقديمة عن طريق بعث الأنبياء والشرائع السماوية، لما استطاعوا بلوغ القيم الإنسانية السامية، ولفقدوا حتى الحدّ الأدنى من متطلبات الحياة الإنسانية نتيجة الظلم والجور والصعوبات الشديدة التي تعرضوا لها. فلو أن الله تركهم يجربون النظام الأصلح بأنفسهم، لكانت التجربة مخاطرة كبيرة بالنسبة لهم، ولاحتاجوا إلى أجيال من التجارب حتى يصلوا إلى جيلنا المعاصرالذي يعيش عصرالعقل والعلم، وظهور العقل النقدي بالأسلوب العلمي. وهذا الرأي، هو أساس ماذهب إليه الشهيد مرتضى المطهري و إقبال اللاهوري ـ ولو بنحوين مختلفين ـ في حاجة الإنسان القديم إلى الأنبياء والشرائع. إذ يقول الشهيد المطهري: «و إن أحد دلائل تجديد النبوات في الماضي هو عجزالإنسان القديم عن حفظ وتفسير الشريعة واتخاذ القرارالمناسب على أساس متطلبات عصره، فكان بحاجة دائمًا إلى نبيّ، لكن تطورالفكرالبشري في عصرالرسول الخاتم (ص) جعلت مهمة حفظ الدين وتفسيره والإجابة عن متطلبات العصرعلى عاتق المصلحين في المجتمع وعلماء الدين»[1].

أما إقبال فيرى أن الحاجة إلى الدين أساسًا تختص بالعصورالتي لم يظهربعد فيها العقل النقدي، والناس آنذاك بحاجة إلى هداية غريزية، ولهذا يهديهم الله تعالى بالغريزة

١- المطهري، مرتضى/ الاعمال الكاملة، ج ٣/ ص ١٧٣-٢٠٢ و١٦٤. (بالفارسية).

المنفصلة (النبوة) إضافةً لما أودع فيهم من غرائزمتصلة [1].

وعلى هذا الأساس، إذا كان المقصود بحاجة الإنسان إلى الدين في حلّ مشاكل حياته، هوالإنسان في العصور السالفة، فيمكن الدفاع عن هذا الرأي بالشكل التالي، وهو لولم يهدهم الله في مختلف المجالات ومنها العدالة وإحقاق الحقّ والشريعة وعدم الظلم واختيارالحكام الصالحين، فمن الصعب القول: بأن الإنسان في العصورالسالفة استطاع تخليص نفسه من الأوهام العديدة التي كانت تحاصر فكره.

ثانيًا: يحتاج الإنسان إلى إرشادات دائمة في شؤون حياته. وفي عصرظهورالعقل النقدي، لم يستطع الإنسان عن طريق «الهندسة الاجتماعية» حلّ المشاكل التي تواجهه في مجالات الحكومة والإدارة والاقتصاد و.. الخ، فالإنسان بحاجة إلى هداية عن طرق الغريزة المنفصلة والحكّام الصالحين في المجالات التي ذكرناها.

ولربما يكون من الصعب جدًا إثبات هذا الادعاء، لأنه قد يطرح شخص ما تعاليم «بوبر» في هذا المجال ويقول: إن العقل النقدي الإنساني يستطيع وعن طريق الهندسة الاجتماعية الجزئية، طرح أهداف وأصول اجتماعية معينة مثل

١- اقبال، محمد/ إحياء الفكرالديني في الإسلام/ الترجمة الفارسية، ص ١٤٤ - ١٦٨.

الإشـراف علـى السـلطة وطريقـة إصـلاحها، وحمايـة الحريـات المشـروعة، وتوزيـع الثـروة وحـلّ مشـكلة الفقـر، وتعيـين حـدود الحريـات إلـى جانـب مئـات المسـائل الأخـرى، علـى أسـاس الأصـول الأخلاقيـة. يـرى بـوبرأن جميـع البشـريمتلكـون شـعورًا أخلاقيًـا، ويـؤمن بـأن عامـة النـاس إذا لـم تكـن أفضـل مـن النخبـة الفكريـة والسياسـية مـن الناحيـة الأخلاقيـة، فهـي ليسـت أدنـى مـنهم، ومـن ثـم يقـوم بتقيـيم طريقـة الوصـول إلـى هـذه الأهـداف بالهندسـة الاجتماعيـة، واسـتخدام الأسـلوب العلمـي، أي نقـد الفرضـيات فـي كـلّ مـورد، ومـن ثـم إبطـال الفرضـيات الخاطئة.

ويعتقـد كـارل بـوبرأن العقـل النقـدي لـه تلـك الإمكانيـة، وقـد توصـل إلى نجاحـات بـاهرة مـن الناحيـة العمليـة. فهـو لا يجيـز فقـط الاعتمـاد علـى العقـل النقـدي، بـل يـذهب إلى ضـرورة ذلـك، لأنـه يعـدّ التقيّـد بالعـادات والتقاليـد الخرافيـة أو الإيمـان بأصـول غيـر قابلـة للنقـد أو بـآراء تاريخيـة خياليـة، مـن خصوصـيات المجتمعـات المغلقـة. وفـي مقابـل ذلـك، يعتبـرالهندسـة الاجتماعيـة التـي تعتمـد علـى النقـد العلمـي والعقلـي، الأسـلوب الأمثـل الـذي يحمـل معـه آليـة إصـلاحه، وبالتـالي فإنـه معـرّض لمخـاطر وأضـرار أقـل (علـى الـرغم مـن أن هـذا الأسـلوب لـم يصـل إلـى درجـة الكمـال بعـد)، لأنـه يطـرح كـلّ مشـكلة اجتماعيـة فـي حقلهـا الخـاص ويبحـث فـي أسـلوب معالجتهـا، ويتجنـب طـرح

الفرضيات العامة وعلى مستويات واسعة جدًا بحيث تشمل كلّ التاريخ البشري وأمثال ذلك، والتي تحتاج إلى مقاييس واسعة ويصعب تقييم عواقبها.

يؤكد الشهيد الصدرأن تشخيص النظام الأصلح يحتاج إلى تجربة اجتماعية وفترة زمنية طويلة. أما جواب بوبروأمثاله، فهوأنه في العصرالحاضرالذي يعدّ عصرظهورالعقل النقدي، فنستطيع عمليًا توضيح الأهداف والأصول الاجتماعية المناسبة وتحديد كيفية بلوغها، والاستفادة من أساليب أقل خطورة، وتجنب وقوع فجائع ودماربسبب الاستناد إلى جزئيات وآراء تاريخية غيرقابلة للنقد، باستخدام تلك الأساليب، لأن أساس عملنا يرتكزعلى دفع المفسدة بدل كسب الحدّ الأعلى من المصلحة أوالمنفعة. وبهذا الشكل لا يمكن الحديث عن عدم موضوعية التجربة الاجتماعية وتمايزها مع التجارب الطبيعية، والمسألة ليست فلسفية تمامًا، مع أن اختياربعض الأصول والأهداف الاجتماعية، مثل الحرية وحقوق الإنسان فانها تتأثربالآراء الفلسفية الشخصية والمفاهيم الاخلاقية، وقد توصل الإنسان باعتباره موجودًا أخلاقيًا وعاقلًا إلى هذه الأهداف والأصول، ولربما ساعده الدين أحيانًا في هذا الإدراك والفهم. لكنه قد يتيسرالوصول إلى تلك الأهداف عن طريق الأسلوب العلمي والهندسة

الاجتماعية، التي يعدّ تبلورمثل هذه المجتمعات دليلًا عليها. فلو ادعى شخص أن الدين أقدرعلى تحصيل الأمورالتي ذكرناها، وأنه لا يمكن الوصول إليها بدونه، فلابد له من أن يأتي بدليل بيّن يوضح تمايزالمجتمع الديني عن المجتمع غير الديني فيما ذكرناه من مسائل.

أما حلّ مشكلة تطبيق النظام الأصلح، التي طرحها الشهيد الصدر، فممكنة عقليًا وعمليًا عن طريق الهندسة الاجتماعية، و إيجاد مؤسسات فاعلة وقادرة على السيطرة والإشراف، وعلى سبيل المثال يمكن حلّ مشكلة شراء الآراء وسيطرة القوى الاقتصادية على القوى السياسية والتشريعية، بإيجاد مؤسسات فاعلة ووضع قوانين لازمة، والدليل على ذلك النجاح النسبي الذي حصلت عليه المجتمعات الليبرالية. مع أن الطريق لايزال طويلًا لحلّ جميع المشاكل، ويجب أن لا نتوقع إيجاد حلول لجميع المشاكل، لكنه طريق قابل للتكامل باستمرار، وهو ما يفعله الإنسان دائمًا. ويجب أن لا نغفل عن هذه الحقيقة، وهي أن التربية والايمان الديني يستطيع أن يكونا سندًا قويًا لاتخاذ قرارات أخلاقية من قبل الأشخاص. وعلى هذا، لو كانت القيم الأخلاقية مرتبطة بعقيدة وتربية دينية، ومتمتعة بالقداسة التي تضفيها عليها، ستكون بالتأكيد شديدة التأثير، ويبقى المجال مفتوحًا أمام هذا

التساؤل وهو: أليس من المحتمل أن تكون القرارات الأخلاقية التي يتخذها الإنسان معلولة لتربيته الدينية؟ ولأن جذور الدين تمتد في التاريخ الإنساني، فليس هناك دليلٌ على إنكاره.

ومن بين مؤاخذات الشهيد الصدر على الديمقراطية الغربية، هذه المؤاخذة المهمة، وهي أن رأيها في الحياة الإنسانية والقيم الأخلاقية لا يمتلك تفسيرًا مقنعًا يمكن الدفاع عنه، وهو ما يتضح في كلام بوبر الذي يعدّ من المتطرفين في دفاعهم عن الليبرالية والديمقراطية الغربية، لأنه لم يقدم دفاعًا عقلانيًا عن الأصول الأخلاقية، بل قال بعدم إمكانية إثبات صحة أو خطأ القيم الاجتماعية. والشيء الوحيد الذي يراه ممكنًا، هو مقارنة المواقف الأجتماعية المختلفة وتبعاتها مع بعضها، وفي النهاية فإن قبول أو نفي هذه القيم الاجتماعية مسألة ترتبط بالقرار الأخلاقي، أما القرار الأخلاقي نفسه (مثل اختيار الاتجاه العقلاني) فلا تسند إلى دليل، بل له ارتباط وثيق بحب النوع الإنساني[1]. وكما رأينا، ليس هناك دليل على القيم الأخلاقية في هذا الكلام. ولذا وكما بيّن الشهيد الصدر، تكون التربية والعقيدة الدينية سندًا قويًا يمكن الاعتماد عليه في الأصول الأخلاقية. ولربما

١- فرانتس اشتارك/ ثورة أم إصلاح، حوار مع هربرت ماركوزة وكارل بوبر/ ص ٦١ - ٦٢.

يقـول إن إدراك الحسـن والقـبح عقليًـا أو بعبـارة أخـرى الحسـن العقلـي للقـيم الـذي يمكـن إدراكـه مـن قبـل الإنسـان، يمكنـه تفسـيرالإجـراءات والقـرارات الأخلاقيـة. وفـي جـواب ذلـك نقـول، إن إدراك حسـن القـيم الأخلاقيـة أو مجـرد الشـعوربهـا، يواجـه مشـكلة أخـرى، فـي مقـام العمـل، وعنـد اتخـاذ القـرارالأخلاقـي، وهـي الصـراع الـذي سـيعانيه الإنسـان بـين شـعوره الاخلاقـي ومصـالحه الشخصـية. ويحتـاج التغلـب علـى هـذا الصـراع وجـود حكـم أعلـى ينهـي النـزاع لصـالح القـيم الأخلاقيـة. ولا يـأتي مثـل هـذ الحكـم إلاّ مـن الإيمـان والرؤيـة الكونيـة التوحيديـة التـي مصدرها الدين.

إن الحكـم السـني الـذي مثّلـه الخلفـاء الراشـدون والـذي كـان يقـوم علـى أسـاس الإسـلام والعـدل، حمـل علـيٌّ السـيف للـدفاع عنـه إذ حـاب جنـديًا فـي حـروب الـردّة تحـت لـواء الخليفـة الأول أبـي بكـر، وكلّنـا نحـارب عـن رايـة الإسـلام، وتحـت رايـة الإسـلام مهمـا كـان لونهـا المذهبي.

الشهيد محمد باقرالصدر